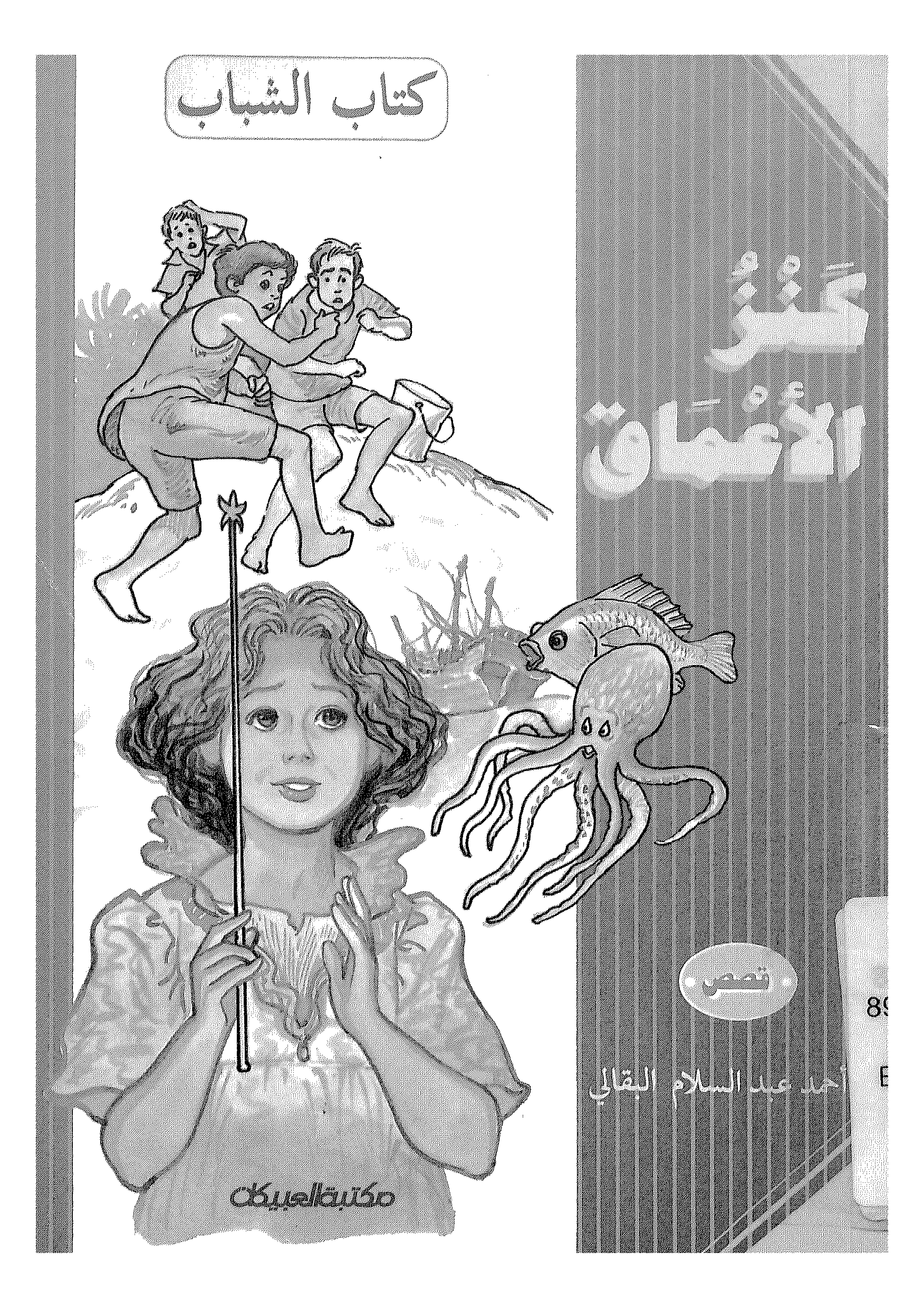


كتاب الشباب
كنز الأعماق
قصص
أحمد عبد السلام البقالي
مكتبة العبيكان



كَنْزُ الأعْمَاق

بقلـم

أحمد عبد السلام البقالي

مكتبة العبيكان

ح مكتبة العبيكان، ١٤١٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البقالي، أحمد عبد السلام

كنز الأعماق . ـ الرياض .

. . . ص؛ . . . سم . ـ

ردمك ٩ ـ ٢٤٢ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠

١ ـ القصص البوليسية العربية أ ـ العنوان

ديوي ٨١٣، ٠٨٧٢ ١٧/٠٢٢٧

ردمك ٩ ـ ٢٤٢ ـ ٢٠ ـ ٩٩٦٠ رقم الإيداع : ١٧/٠٢٢٧

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ/١٩٩٦م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض ـ العليا ـ طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

1

قـالَ الحاجُّ (مُومِنٌ) لِطِفْلَتِـهِ (وَرْدَةَ) التي كـانت تقرأُ لـه من أحدِ كُتُبِها المدْرسيَّةِ :

– ورْدةُ .

– نَعَمْ ، يَا أَبِي .

– كَفَى قـراءةً . أقفلِي ذلكَ الكِتَـابَ ، واخْـرُجِي لِتَلْعَبِي مَعَ زَميلاَتِك .

ونظرتْ ورْدةُ إلى أَبِيهَـا المَرِيضِ في فراشِهِ ، وقدْ غَـارَتْ عَيْنَاهُ ، وذَبُلَ جَسَدُه ، فتنهّدت وقالت :

– قريبًا تَصِلُ أمِّي لِتَبْقَى مَعَكَ ، وأَخْرُجُ أنَا .

نظر إلى وجْهِهَا الصَّغِيرِ الشَّاحِبِ ، وقال :

– لاَ تقلقي عَلَيَّ ؛ لَنْ أحتَـاجَ إلى شيْءٍ حتـى تعـودَ أمُّكِ . اذْهبِي أنتِ ، والعبِي في الشَمْسِ والهوَاء ؛ فقـد اصْفَـرَّ وجْهُكِ ، ولا أُريدُكِ أن تَمْرَضِي .

فأقْفلتْ الكِتَــابَ إرضَــاءً لأبيهــا . ومــا كــادَتْ تقفُ حتى سَمِعَتْ صَرِيـرَ بابِ الكـوخِ القَصْدِيـرِي وهو ينفتح ، فقــالت مُبْتَهِجَةً :

- ها هي أمِّي وصلَتْ !

وأسرعَتْ لاستقبالها .

وانْحَنَتْ (حَفْصَةُ) مُتْعَبَـةً لابنتها لتقبِّلهــا ، ودخلت الكوخَ ، وألقتْ بثقلِهَــا على حَشِيَّـةِ التِّبْن إلى جــانبِ فــراشِ زوْجِهــا ، وقَعَدَتْ تَسْتَرِدُّ أنفاسَها المحْبُوسَةَ مِنْ طُولِ السَّيْر.

والتفتت إلى زوجِها تسألهُ :

- كيفَ تحسُّ يا سي الحَاجّ ؟

فأجاب راضيًا بقِسْمَتِه :

- الحمْدُ لله . ماذَا فعَلْتِ اليومَ ؟

- ذهبتُ إلى دَارِ الحاجّ المختَارِ ، فأعطُـونِي جبلاً من الملابسِ لأصبِّنهــا ! ولم أنْتَــهِ منْهَــا إلاَّ الآن . غــدًا سأعــودُ لأكــوِيَهَا وأطْوِيهَا .

فتنهَّـد الحاجُّ مُومِنٌ، وتـرقْـرَقَتْ مِنْ عينيـهِ دمْعتان، ولكنَّـه مَسَحهُمَا في الـوِسـادَةِ قبلْ أن تَـراهُمَا زوجتُـهُ أوْ صغيرتُـه ورْدَةُ، وقال:

- وجدْتني أقُـولُ لِوَرْدَةَ أنْ تَخْرُجَ لتَلْعَبَ مَعَ صاحبـاتِها؛ فقدْ شَحُبَ لونُها من طُولِ حَبْسِهَا مَعي.

ونظـرتْ حَفْصَـةُ إلى طفلتِهـا، وتـذكَّـرتْ شيئًـا، فتنـاولتْ قُفَّتَهَا، وأخرجتْ منها تفَّاحَةً ناولَتْهَا إيَّاهَا:

- خذِي هـذه يا ورْدَةُ، واخـرُجِي للّعبِ. ولكنْ لا تَبْتَعِدِي كثيرًا!

فأخذَتْهَا وخـرجتْ تجْرِي فَرِحـةً إلى الشّـارع، وتـوجَّهَتْ نحوَ الشَّاطئِ وفي ذِهْنِهَـا فِكْرةٌ واحدَةٌ؛ هي زيارةُ صـديقهَا (آخْتو)، الأخطبُوطِ الصغيرِ.

2

كَـانَتْ وَرْدَةُ قـد عَثَــرَتْ عَلَى (آخْتُـو) في بِـرِكَـةٍ صغيرةٍ على الشَّاطِـئِ أَثْنَاءَ إحـدى سياحاتِهَا اليـوْمِيَّةِ . فبينما هـي تَمْشِي فوقَ الحجارَةِ الملْسَـاءِ المكْسُوَّة بالطَّحَـالِبِ الخضْراءِ إِذْ لاَحَظَتْ شيئًا يتحرَّكُ حـركاتٍ غـريبةً داخِلَ البرْكَةِ . فـاقْتربَتْ بحذرٍ شـديدٍ حتى لا يقع ظِلُّهَــا في الماءِ ، ولا تقطـعَ أشِعَّــةَ الضَّــوْءِ دَاخِلَ البِركَـةِ ، فإذا بـأُخْطُبُـوطٍ صغيرٍ يَلْعَبُ قـريبًـا مِنْ سَطْحِ المَاءِ ، فيَنْشُرُ أذْرُعَــهُ الثَّمانِيَــةَ في كلِّ اتِّجاهٍ حتـى يَصِيرَ كــالنجْمِ! ثمَّ يَضُمُّهَا إليه ، فيُصْبحُ كُرَةَ لَحْمٍ لَزِجَةً ، ثمَّ يَنْطَلقُ بِسُرْعَةِ صَارُوخٍ في أحَدِ الاتِّجَاهَات .

وأقْعَتْ وردةُ تتفـرَّجُ عليْـهِ بِـافْتِتَانٍ كبيرٍ دُونَ أَنْ يَـرَاهَـا . وفي حَركَةٍ بهْلَوَانيةٍ ، وضَعَ الأخْطُبُـوطُ الصَّغِيرُ أطْرَافَ أذرُعِهِ الرَّقيقَةَ مُلْتَوِيةً فوقَ رأسِهِ ، ووقَفَ يُطِلُّ مـن خِلاَلِهَا ، فبَدَا وَكَأَنَّ لَهُ شَعَرًا كَثيفًــا . فلـمْ تتمالَكْ ورْدَةُ من الضَّحِكِ والقَهْقَهَــةِ بصــوتٍ عَالٍ . . .

وأفـزَعهُ وجـودُهَا وقهْقَهَتُهَـا ، فـانْدَفَعَ كـالسَّهْمِ نَحْوَ جُحْـرٍ مُظْلمٍ ، تَارِكًا خَلْفَه سَحَابةً مِنْ دُخَانٍ أَسْوَد .

وحِينَ انْقَشَعَتِ الغَمَامَـةُ التَّنكُّـرِيَّـةُ ، أخـذتْ ورْدَةُ تُنَـادِيـهِ وتُنَاغيهِ بِصَوْتٍ عَذْبٍ حَنُونٍ .

- لاَ تَخَفْ يَـا عَـزِيـزِي ، لَنْ أمسَّكَ بسُـوء ، أنَـا أحِبُّ الحَيَـوَانَاتِ كُلَّهَـا ، وأوَدُّ أنْ تكُونَ صَـدِيقًـا لِي ، فَهَلْ تُرِيـدُ أنْ تَكُونَ صَديقي ؟

واسْتَحْلَى الأُخْطبُـوطُ الصَّغِيرُ صَـوْتَ وَرْدَةَ ، فَـأطَلَّ مِنْ ظَـلاَمِ جُحْرِهِ بعيْنَيْهِ الحزينتين ، ونظرَ إليها وهي تَمُدُّ له يَدَهَا داخِلَ الماء .

وتَرَدَّدَ قليلا ، ثم خرجَ بِحَذَرٍ يَدْفَعُ الأرْضَ بأيْدِيهِ الثَّمَانِيَةِ .

وسَمِعَ وَرْدَةَ تسْأَلُهُ :

- ماذا تفْعَلُ هُنَا وحْـدَكَ؟ أيْنَ أُمُّك؟ لماذَا لَمْ تَذْهَبْ مَعَهَا إلى دَاخِلِ البَحْرِ سَاعَةَ الجَزْرِ؟

واقْتَرَبَ هُوَ مِنْ يَدِهَا ، ومدَّ يَدَهُ فلَمـسَ أصَابِعَهَا بمصَّاصَاتِهِ المُسْتَدِيـرَةِ في فُضُولٍ ، وحرَّكَتْ هي سبَّـابَتَها مُدَغْدِغَـةً ذِرَاعَه .

وحِينَ رَأى أنَّ اليَـدَ نَاعِمَـةٌ وهَادِئَةٌ زَحَفَ فَـوْقَهَا، وتَـربّعَ وَسطَ كَفِّهَا المفْتُوحَةِ.

وأحسَّتْ وردَةُ بسعَـادةٍ هَـائلةٍ تَغْمُـرُهَـا، وتُـدْفِئُ قَلْبَهَا لِثِقَـةِ الأُخْطُبُوطِ الصَّغِيرِ بِهَا، ورغْبَتِهِ في اللَّعِبِ مَعَها.

وأدْخَلَتْ يَـدَهَا اليُسْرى في المَاءِ بِهُدُوءٍ، وأخَذَتْ تَـرْبُتُ على رأسِهِ النَّـاعم الشَّبيه برَأْسِ شَبَـحٍ في رُسُومِ الأطفَالِ المُتحـرِّكَةِ، وتُخَاطِبُه، وكأنَّه يَفْهَمُها.

ورَفَعَتْهُ عَلَى كَفِّهَا فوق سَطْحِ الماءِ ليَسْمَعَهَا، وسألَتْهُ:

- مَا اسْمُك؟

وصدر عنهُ صوتٌ يُشْبِهُ العَطْسَةَ الخَافِتَةَ، فضَحِكَتْ ورْدَةُ وقالتْ:

- سأسَمِيّكَ إذنْ (آخْتُو). هَلْ يُعْجِبُكَ هَذَا الاسم؟

وبمرُورِ الأيـامِ وكثْرَةِ اللقـاءَاتِ بينهُمَا بدأتْ ورْدَةُ تفْهَـمُ لُغَةَ آخْتُـو مِنْ خـلالِ همْسِـهِ وفَحِيحِـهِ وشَخِيرِهِ وحـركَـاتِ أذرعـه الثَّمانِيَةِ، وصارا صَدِيقَيْنِ حَمِيمَيْنِ.

لذلكَ كـانت ورْدةُ تُرحِّبُ بِكُلِّ فُرْصَةٍ للنُّـزُولِ إلى الشَّاطِئِ، أثْنَاءَ الجَزْرِ، لِلقاءِ صَديقِها البَحْري الصَّغِير.

3

وفي هذا المساءِ جلسَتْ على حفافِ البِرْكَـةِ كالعَادَةِ، ومدَّتْ يَدَها فأمْسَكَ آخْتُو بأصَابِعِهَا، وأخَذَتْ هِيَ تُلاَعِبُه وتُناغِيهِ.

وبينَما هيَ كـذلكَ غَارقـةٌ في السَّعادَةِ والحُبُـورِ، إذْ أظْلَمَ مِنْ حَوْلِهَا المكانُ، وفـزِع الأخْطبُوطُ الصَّغيرُ، فَنفَثَ في يَدِهـا دُخانَهُ الأسْوَدَ، ومَرَقَ كالسَّهم في اتجاه جُحْرِهِ!

ورفعتْ ورْدَةُ رأسَهَـا، فإذا خَمْسَـةُ أولاَدٍ من شِـدَادِ غِلْمانِ البساتِينِ المُجَـاوِرَةِ يُحِيطُونَ بالبِرْكَةِ، وفي أيـديهمْ العِصِيُّ المُدَبَّبَةُ والشِّباكُ وعُلَبُ الصفيحِ، لِجَمْعِ ما يصيدونه من أحْياءِ البَحْرِ.

وكـان على رأسِهم وَلَـدٌ أكبرُ منهم سِنًّا يطلِقُـونَ عليـه لَقَبَ (شَعْكُـوك)، لِتراكُم شَعْرِهِ فـوقَ رأسِهِ في شكلٍ كـومةٍ مُهْمَلَـةٍ! وكـان شعكوكُ قـاسيًـا جدًّا على الحيـوانـاتِ بجميعِ أنواعِهَـا، خصـوصًـا الأسماكَ الصغيرةَ والقِطَطَ والسَّحَالِيَ والسَّـلاحِفَ وغيرهـا. كـان يَصْطَـادُ عـددًا كبيرًا من الأسماكِ الصَّغيرةِ أثنَـاءَ

الجَزْرِ، وحينَ ينتهِي مـن اللَّعِبِ يـــرْمِي بها على الرملِ، وهي حيَّة، ويترُكُها تموت . . .

وكـانت وردةُ تجمعهـا في عُلْبةٍ صفيـحٍ وتعيدهـا إلى البحـر. ولكنه حينَ كان يراها لم يكنْ يسمحُ لها بذلك.

وتكلَّمَ شَعْكُوكٌ أولاً:

- وردةُ، ماذا تفْعلِينَ هُنَا وحْدك؟ مع من كُنْتِ تتكلَّمين؟

وقفتْ وردةُ خــائفـةً على صــديقهَـا الأخطُبُــوطِ الصَّغِيرِ، وقالتْ:

- لمْ أكُنْ أتكلَّمُ. هَلْ أنا حَمْقَاءُ حتى أتكلَّمَ وحْدي؟

وضحِكَ أحَـدُ الأطفــالِ، وكـان قصيرًا ممتلِئًـا، يُنَـادونَـهُ (بعكوك)، وقال:

- لاَ تُحَاوِلي الكذِبَ عَلَيْنَا؛ فقد رأينا وسمِعْنَا كُلَّ شيء.

ودقَّ قلبُ وردةَ بعُنْفٍ خوفًا على الأُخْطُبوطِ، فقالت:

- ماذا رأيتمْ؟ هذه بُحيرةٌ من آلاف البحيْرَات.

فقال شعْكوكٌ وهو يتقدَّمُ ليفحصَ البُحيْرَةَ:

- بماذا كنتِ تلْعَبِينَ بيدَيْكِ؟

وحمْلَقَ داخِلَ الماءِ، ورفعَ مشَكًّا طويلاً في شكْلِ قضيبٍ حديديٍّ مُدَبَّبِ الرَّأْسِ، وَهَمَ بإدْخَالِهِ في جُحْرِ الأخْطُبُوطِ. وامتقعَ وجْهُ وردةَ فأمْسَكَتْ بالمِشَكِّ وأبعدتهُ عن الجُحْرِ صائِحةً في وجهِه:

- هذه بُحيرَتِي أنا. أنا أتيتُ إليْهَا قبْلكم.

فنظر إليها شعكُوكٌ باستغرابٍ وتحَدٍّ، وقال:

- البحرُ بحرُ الله. ولا أحَدَ يملِكُ منه شيئًا.

ونـزع منها المِشَكَّ، وانْحنى ليُدْخِلَه في الجحرِ، ولكنَّ ورْدَةَ انْبطحتْ على صدْرِهَا وأدخلت يدَهَا في الماءِ حتى المرفَقِ، وأغْلَقَتْ بكفِّها بابَ الجُحْرِ.

وزادَ فضُولُ الجماعةِ وهُم يروْنَهَا حريصةً على إخْفَاءِ ما في الجُحْرِ، فحاوَلُوا رفعَهَا وإبعَادَهَا بالقوَّةِ، ولكنَّهَا صرختْ، وبكتْ وركلَتْ وعَضَّتْ وخدَشَتْ حتى ابتَعَدُوا عنهَا جميعًا مستغربين من قُوَّتها وشراسَتِهَا المفاجِئَة.

ووقف شعْكُوكٌ مُصِرًّا على معْرِفَةِ ما تُخْفِيهِ وردةُ في ذلك الجُحْرِ، وقال:

- اسْمَعِي يا طفْلَة. لنْ نتحرَّكَ من هنا حتى نعْرِفَ ما تُخبِّئِينَ في ذلك الجُحر، فارْفَعِي يدَكَ وإلاَّ ثقبتُهَا بهذا المِشَكّ !

فأعَادتْ وردةُ من خلاَل دُموعِهَا :

- لنْ أفعلَ. لن أفعلَ. لن أدعَكَ تقتلُ هذا المخلوقَ المُسالِمَ المسكينَ. ماذا فعل لك؟ أنتَ وحْشٌ قَاسٍ!

وهُنَا غرز شعكوكٌ رأسَ المِشَكِّ الحديدي في كفِّ وردةَ، فصرخت من الألمِ، وفارَ الدمُ من كفِّها وسط البُحيرة، واختلط بمائِهَا . . .

وحينَ رأى شعكوكٌ وبقيَّة عصَابتِهِ ذلك خافوا، وانطلقُوا هارِبينَ بين البِرَكِ، وأخذوا ينزَلِقون ويسقُطُون، فتنسلِخُ سِيقانُهم ورُكَبُهُمْ.

وأخرجت وردة يَدَهَا من الماءِ ولَفَّتْهُ في مِنْديلِها، ووقفتْ تمسحُ دموعَها، وتنتظرُ صفاءَ ماءِ البُحيرة.

وعاد ماءُ البحيرةِ إلى صفائِه، ولكنَّ (آخْتُو) بَقِيَ خائفًا مُخْتَبِئا في جُحرِهِ العميقِ المُظْلمِ، فنادتْهُ وردةُ بصوتٍ حنون :

- آخْتـو. آختو. لا تخفْ. . اخـرُجِ الآنَ؛ فقد ذهبـوا. هل تسمعني؟

وأطلَّتْ من ظـلامِ الجُحْـرِ عينان حـزينتَـانِ، فأدْخَلَتْ وردةُ يدها السَّليمة في الماء، وقالت:

- تعـالَ. . . اركَبْ كفِّي لأذْهَبَ بك إلى البحـرِ العميقِ؛ فقد يعودُ شعكوكٌ وعصابَتُه.

وزحفَ آختُو مُطيعا أوَامِرَ وردةَ، وطلع فوقَ كفِّها الصغيرةِ، فـرفعَتْه فـوقَ الماء بـرفقٍ حتى لا يخافَ، وعـانقَ هـو يـدَهَـا وأصابِعَهـا بأيديه الثمانيةِ، وألصَـقَ مصَّاصاتِهِ بجلـدها حتى لا ينزلِقَ ويسقُط.

وحَمَلَتْـهُ هي عبرَ الصخـورِ صَـوْبَ عُـرْض البحـرِ، وهنـاكَ وضعتْهُ داخلَ الماءِ قائلة:

- لا تبْتعدْ كثيرا. انْتَظِرْ عودَةَ أمِّك. قريبا يبدأ المدُّ، ويمتلئ البحرُ، وتعودُ أمك.

ورفع آختو إحْدى أيديهِ مُـوَدِّعًا وردةَ، وشاكرًا لها فضل إنقاذ حَيَاتِهِ من شعكوكٍ وعصابتِه.

4

وَلَمْ يكـدْ (آختـو) يغطسُ في الماءِ حتى أحـسَّ بـذراعٍ قـويـةٍ تنْطبقُ على خَصْرِه، وتجْذبُـه إلى أسفل. وفتح عينيـهِ تحتَ الماءِ غاضبا، فإذا به وجهًا لوجهٍ مع أمه (شعلة).

كـان آختـو قد فتح فمَـه ليصرخَ ويشتُمَ الـذي أمسكَ بـه، ولكنَّه عاد إلى إقفاله حينَ رأى أمَّه. وضمته شُعلةُ إليها بأذْرُعِها الثمانيةِ. وأخذتْ تمسحُ على رأسِه وتقول:

- الحمْدُ لله على سلامتِك، يا ولـدي! لقد كـدتُ أُجَنُّ من الخوفِ عليكَ، وأنـا أسمـعُ من هنـا مـا يـدورُ بين شعكـوكٍ وعصابتـهِ الخبيثـةِ، وبين تلك الفتاةِ الطيبـةِ القلب. ما اسْمُهَا يا نَجْم؟

فانتحَبَ آختُو متأثرًا بلقاءِ أمِّه شُعْلة، وقال:

- اسمُها وردة. ولولاها لقتلني شعكوكٌ بمِشكِّه الحديدي. كـانَ يريـدُ أن يطعنني بـه، ولكنَّ وردةَ وضعتْ يدَهـا على بَاب

جُحْـري، فانْغـرز رأسُ المشكِّ في كفِّهـا، وسَالَ دمُهـا في الماء.

مسْكينة!

فضمَّتْهُ شُعلةُ إليها فرحةً بنجاتِهِ منَ الموتِ، وقالت:

- لا بُدَّ أن وردةَ من مُحِبِّي الحيواناتِ. ولا بد أنْ نُجَازِيهَا على دفاعِهَا عنك.

- كنتُ سأقْتَرِحُ ذلك عليكِ يا أمي، ولكن كيفَ نُجازِيها؟

فَحكَّتْ الأم رأسهَا مُحْتَارةً، ثمَّ قالت:

- لا أدري. سَنجدُ طريقةً ما.

فانْفصلَ آختو عن أمِّه مُتحمِّسًا، وقال:

- أنا أعرِف.

- ماذا؟

- نُقدِّمُ لوردةَ هديةً.

- ما هي الهدية؟

- نملأ لها زجاجةً كبيرةً من دُودِ الحَجَرِ الرَّمْلي الذي يُعجبنَا.

ونظرَ إلى وجْهِ أمِّه ليرَى أثرَ اقتراحِه عليها، فَبرُدَ حماسُه حين لم يرَ على وجهِها الحماسَ الذي توقَّعَهُ.

قالت شُعلَة:

– اقتراحُكَ وجيه. ولَو كانتْ وردةُ أُخطبُوطًا مثلنا لوافقتُكَ عليه في الحال. ولكنها آدميةٌ. هل فهمتَ؟

فحرَّك آختو رأسَه فاهِمًا. وأضافت شُعلة:

– ليسَ كلُّ ما يعجِبُنَا نحنُ يُعْجِبُ الآخرين.

فسأل آختو:

– وكيف نعرِفُ ما يعجبُها إذنْ؟

– نسألُ أهلَ العِلْمِ والتجْرِبة.

وأمسكتْ بيدِ ابنها، وذهبتْ تبحثُ عن حُكماءِ الأسْمَاكِ في الأعْمَاق.

5

أمـا وردةُ فقــد عـادتْ إلى منـزِلها تجري وتقفــزُ من الفَـرَح والسعـادةِ بنجـاة الأُخطبوطِ الصغير (آختـو) من مـوتٍ مُحقَّق.

كانتْ تريدُ الوصـولَ إلى الدارِ بصبرٍ فارغٍ؛ لتحكِيَ لأبيهَا وأمِّها عن مغامرتها الجديدة.

ودخلت الكوخَ تجري وتلهث، فقـابلتْهَا أمُّهـا بوجـهٍ عابِسٍ مُرهقٍ، وصاحتْ فيها:

- أينَ تأخرتِ حتّى هذه الساعة؟

ولم تكـدْ وردة تجيبُ حتى رأتْ عـلائمَ الغَضَبِ المتزايـدِ على وجـهِ أمهـا وهي تنظـرُ إلى مـلابِسهـا. ونظـرتْ وردة إلى حيثُ كانت تنظرُ أمُّهـا فإذا كِسْوتُها الوحيدةُ مغطَّـاةٌ بطينِ البحْرِ ومائِهِ المالِح.

قالت أمها:

- انظرِي، أيتُها الشَّقيَّة، إلى ما فعلتِ بفستَانِكِ الوحيد؟ كأنَّ تَصْبينَ ملابس الناسِ لا يكفي، حتى تُوسِّخِي أنتِ ملابِسَك!

وأمسكتْهـا من يَدِهـا ، وأخذتْ تضرِبُها على وَرِكِهـا ، ووردةُ تبكِي وتستعطِفُهَا بحرارة :

– لم أفعلْ ذلك عمْدًا ، يا أمِّي ! فقد زلَّتْ قدمايَ وسقطت .

– ولكن لماذا تذهبينَ إلى البحرِ؟ ألمْ أقلْ لك مِرَارًا ألاَّ تذْهبي؟

وبعدَ أن أشْبَعَتْهَا ضربًا أوقفتْها أمـامها ، وأخذت تخلعُ عَنْها الفُسْتَانَ . ومن داخلِ الكوخ جاءَ صوتُ أبيها ينادي ضعيفا :

– حفصةُ! حفصةُ !

فقالت حفصةُ لابنتها دافعةً إياها نحو باب الكوخِ :

– خُذِي فوطةً والتفِّي بها . وانظري ماذا يريدُ أبوك؟

ودخلت وردةُ شبـهَ عـاريـةٍ كوخَ أبيهـا ، والتفّتْ بفـوطَـةٍ ، وذهبتْ إليه ، فسألها منزعجًا :

– لماذا تضربُكِ أمُّك؟

فأجابت وهي تنتحِبُ :

– لأنّي سقطتُ في بِرْكَةٍ ، ووسَّخْتُ ملابسي .

فمدَّ يديه نحوها وقال :

- تعالي ، تعالي ، يا عزيزتي . . .

واقتربتْ منه ، وانحَنَتْ عليهِ لتقبِّلَه ، فضمَّها إلى صدْرِهِ بحنَانٍ كبير:

- مسكينةٌ أمُّك! لا تلوميهَا ؛ فهي لا تعرفُ الراحةَ . . . وليسَ لها من يساعدُها . حين أُشْفَى أنا - إن شاء الله - من مَرَضِي سأشتري لكِ عشراتِ الفساتين، وسأكتري خادمًا لمساعَدَةِ أمكِ على أعمالِ البيت .

وأشارَ إلى الحَشيَّةِ إلى جانبه ، وقال :

- اجلسي إلى جانبي ، واحْكِي لي ما رأيْتِ في البحر.

فجلستْ إلى جانبه ، وأخذت تحكي له عن مُغَامَرَتِها مع (آختو) وقد بَرقتْ عيناها من السرور، ونسِيَتْ ضربَ أمِّها لَها .

6

أمَّا آختــو وأمُّه شُعلة، فقد ذَهَبَـا يبحثانِ عن أحدٍ يعـرفُ ما يُعجِبُ الإنسان .

وفي الطريقِ التقيا العقربَ، وهي سمكةٌ رمْلِيةُ اللونِ، كبيرةُ الرأس، فتوقَّفا ليسْألاَها، قالت شُعلة لابنِها آختو:

– تعالَ نسْأَلِ العقربَ؛ فلا بد أنها تعرِفُ الجوابَ.

– لماذَا ؟

– لأن رأسَها كبيرٌ، ولا بد أن يكون مُـخُّها كذلك.

وتقدمت شُعلة منها :

– مساءُ الخيرِ، عمَّتِي العقرب.

ففتحت العقربُ عينيها الناعستين، وسألت :

– ماذا تُريدين؟

– أريدُ أن أسألَكِ عمَّا يُعجِبُ الإنسان.

- لماذا؟

- لأنَّ إنسانـةً أنقذَت ولدي آختـو، وأُريدُ أنْ أُقدِّم لها هـديةً تُعجِبها .

ففتحت العقربُ فمًا كبيرًا في حجْمِ رأسِهـا ، ونظرت إلى آختو الصغيرِ بشَهيَّةِ الجائعِ ، وقالت :

- وماذا ستُعطينَنِي إذا قلتُ لك ؟

فقالت الأم :

- سأُقدِّم لك تشكُّراتي الخالِصَة .

- يَفْتَحُ الله ! أنا لا آكُلُ التَّشَكُّراتِ !

- وماذا تُريدين ؟ اطْلُبِي ما شئت . . .

- حَقًّا ؟

وفتحتِ العقربُ فَمَها الكبيرَ، وابتلعتْ آختو دفعةً واحدة .

ولكنَّ أمَّه شُعلةُ لم تُمْهِلْهَا ، فـارْتَمَتْ عليها ، وطَوَّقتْ بأذْرُعِهَا الثمانيةِ القويةِ عُنُقَهَا .

ووجد آختو نفسه داخلَ ظُلْمَـةِ بَطْنِ العقربِ، فنفثَ دُخَانَه الكثيفَ، وأخذَ يُدْخِلُ أذْرُعَهُ الثمانيةَ في كلِّ ثُقْبٍ يُصَادِفُه . . .

وشعَرَتِ العقربُ بـانْحِبَاسِ أنفاسِهَا، وانْسِـدَادِ خياشيمِهَا، وأُصِيبَتْ بالغثَيَانِ من الدُّخَان الذي ملأ بطْنَهَا فتقيأتْ آختو.

وابتعدَ هو عن الفَم الكبيرِ، وانْضمَّتْ إليهِ أمُّـه شُعلةُ غاضبةً من تصرُّفِ العقربِ الهمَجِيِّ، وهي تقول :

– يا لَهَا من عقْـربٍ بليدة ! أنا ما أزالُ أقـولُ لها إنني أريدُ أن أُكافِئَ الإنسانةَ على إنقاذِ ابني، وإذا بها تَبْتَلِعُه !

فَرَدَّ آختو:

– ليسَ كُلُّ ذي رأسٍ كبير ذَكِيًّا !

– صدقتَ يا ولدي . المظاهرُ تخدع !

وسَبَحَـا في طـريقهما، فإذَا بِسِرْبٍ من البُـوري يَمُـرُّ من فـوقِهِما . فتـوقَّفتْ زعيمـةُ السِّربِ لتُحَيِّيَ شُعلـة التـي كـانت تَعرفُها :

– مساءُ الخير يا شُعلةُ . إلى أينَ أنتِ ذاهبةٌ بابنك ؟

– إننا نبحثُ عن شيءٍ يُعجبُ الإنسانَ لنُقدمهُ إلَيْه هديةً .

فضحكت البوريةُ وصاحت غير مصدِّقة :

- هلْ سَمعتنَّ ؟ هذا آخِـرُ الزمان! عمَّتِي شُعلةُ تُـريدُ إهداءَ شيء الإنسان !

فسألتْ إحدى البوريات :

- ولكنْ لماذا؟ إذا كانت تـريدُ مكـافأتهم على ما يفعلـون بِنَا نحن جنسَ السمكِ فعِنْدِي اقتراح .

واجتمعت عليها البورياتُ الأخرياتُ سائلاتٍ بِفُضُول :

- ما هوَ اقْتِرَاحُك؟

- قريبًا من هنا تُوجَـدُ قنبلةُ أعْمَاقٍ من عهدِ الحربِ، ما تزالُ صالحةً. نلفُّها لهَا لتقدِّمَهَا لصديقهَا الآدميِّ .

فتضاحَكتِ البوريات ، وعقَّبتْ كُبْراهنَّ :

- الحقيقة أنَّ أمرَكِ عجيبٌ، يا أمَّ آختو! الإنسانُ لا يستحقُّ أيَّ إكرام! انظـري إلى ما يفْعَلُ بنَـا نحنُ البوريَ مثـلاً، رغْمَ أننا أذْكَى الأسْمَاكِ، وأعْـرَفُ بِحِيَلِهِ. إننـا نعـرفُ أنـه يُدْلِي لنـا طُعْمًا لذيذا وبدَاخِلِهِ صنَّـارةٌ، فإذا ابتلعناه دخلتِ الصنارةُ خياشيمَنَا

أو شِفَاهَنا، أو بُطُونَنَـا، وأمسَكَ هو بنا. لذلكَ لا نأكُلُ الطُّعْمَ دفعـةً واحـدةً، بـل نَنْتِفُـهُ نتفًـا حتى نأتِيَ عليـه. ولكنّـه فَطِنَ لذلك، فأخذ يضعُ تحتَ الطُّعمِ ما يسمَّى (بالخطَّافَة).

فسأل آختو:

– الخطافة؟

– نعمْ، وهي مكـوَّنَـةٌ من أربَعِ صنـانيرَ كبيرةٍ. وكلَّما اقتربَ بعضُنا من الطُّعمِ وجذَب الخطَّافة خطفهُ من بطنه.

فَشَهَقَتِ البوريـاتُ الأُخرياتُ وكذلكَ شعلـةُ من الفزَع... ولكنَّ آختو تدَّخل:

– ولكننا لا نـريدُ الهديةَ لـذلك النوعِ من البَشَرِ، بل نريـدُهَا لإنسـانـةٍ تُحِبُّ الحيـوانَ، وتعْطِفُ على الأسماكِ الصغيرةِ. وقـد أنْقـذتْ حياتي حين حـاوَلَ شعْكـوكٌ وعصـابتُه غـرز المشكِّ في بطني.

واستمعتْ إليه البورياتُ بفضولٍ، وتدخَّلتْ شُعلة:

– ما قاله آختو صحيحٌ.

فشهقتْ زعيمةُ البُوري، وقالت:

- «عِشْ رَجَبًا تسْمَعْ عجبًا!». أنا لا أصدِّقُ من هذا كلِمَة.

وأشارتْ برأسها إلى زميلاتِهَا فَتَبِعْنَهَا، وبقيَ آختو وأمُّه وحدَهُما، فأمسكَ بإحدَى أيدِيها، وأخذ يَجُرُّها، فقالت:

- لا يَنْبغِي أن نتحرَّكَ من هنا حتى نعرفَ أينَ سنذهبْ. وما كان ينبغي أن نبدأ الطريقَ حتى نحدِّدَ الهدَفَ، عملاً بالآيةِ الكريمة ﴿ واقْصِدْ في مَشْيِك ﴾.

فجرَّها من يدِها قائلا:

- وأنا أقول: «تحرَّكوا تُرزقُوا»، فنحنُ نعرفُ ما نُرِيدُ، ونبحثُ عنه.

- ولكنْ في أيِّ اتِّجاه؟

وبينما هما يتناقشان إذْ سَمِعَا صوتًا غريبًا، شبيهًا باقْترابِ زوْرقِ صيدٍ، فاحْتضنتْ شعلةُ صغيرها، والتصقَتْ بالأرضِ. ورفعت عينيها فإذا حُوتُ سيفٍ كبيرٌ يسبحُ فوقهما. وكانت شعلةُ تعرِفه.

فقالت لابنها :

- لا تَخف يا آختو. إنَّه القائِدُ أبو سيْف .

ونظر آختو إلى جسمِ الحوتِ الممتدّ كبطن زوْرَقٍ فوقهُمَا، وفتحَ فمهُ إعجابًا بقوَّتِهِ، وقال لأمه :

- تعالي نَسْأَلْه . لا بد أنه يعرفُ ما يُعجبُ الإنسان .

- القائدُ أبو سيف محاربٌ شُجاع، ولكنه لم يُدرَّبْ إلاَّ على تلقيِّ الأوامر وتنفيذها . ولا أعتَقِدُ أنه يعرفُ في هذه المسائِل الثقافية . فلا ينبغي أن نُحْرِجَهُ بسؤالنا .

ولكنَّ آختو ألحَّ في سؤالِهِ لمجرَّدِ النَّظَرِ إليه من قريبٍ، فنادَتْهُ شعلة :

- حضْرةَ القائد أبَا سيف . يا أبَا سيف!

فتوقَّف الحوتُ الكبيرُ، والتَفَتَ حواليه :

- من يُنادي ؟

ومن تَحْت جاءَه صوتُ شُعلةَ رقيقًا :

- أنا، يا عمِّي أبا سيْفِ . أنا هنا تحْتَكَ .

فنظر إلى تحت، ونزل ليتسَاوَى مع شُعلةَ وآختو:

- أهلاً! أهلاً شُعلة! منْ هذا الذي معكَ؟

- إنه ابني آختو.

- أهـلا وسهلا! مـاذا تفعلينَ هنـا في هـذه المِيَاهِ العميقـة؟ بلادكم على الشاطئ.

- جئتُ لأبحثَ عن شيءٍ يُعجِبُ الإنسان.

فضحكَ المُحارِبُ الكبيرُ ضحْكةً خشنَةٍ، وقال مُستغربًا:

- يا لَهُ من عَمَلٍ غريب! ولماذا تريدينَهُ؟

- لإهْدَائِهِ لطِفْلَةٍ بشرية أنقذتِ ابني هذا من الموتِ.

فضحك الحوتُ القويُّ. وقال:

- هـذه أغـربُ من أخْتِهَا! لأولِ مـرَّةٍ أسمعُ بإنسـانٍ ينقِـذُ أُخطبـوطًـا. نحنُ بـالنسبـة إليهم حيـوانـاتٌ مبَـاحـة للصَّيْـدِ والأكلِ، وليس لنـا روحٌ ولا عقلٌ ولا عواطف. فهُمْ مـا يفْتأونَ يَنْصِبُون لنـا الشِّباك، ويطعنونَنـا بالحِرَابِ والسِّهـام، ويغْرِزونَ فينا الشُّصُوصَ والصنانير! ولكن لا يمكنُ أن نلومَهم.

فقاطعهُ آختو منفعلاً :

- لا نلُومهم ؟ بعدَ كلِّ ما قلتَ عنْهم ؟

فردَّ أبو سيفٍ بِحِلْمِ الأبِ الرَّؤوم :

- حقًّا ، يـا ولدي ، هناكَ بعـضُ التناقُضِ فيما قلتُ ، ولكنَّ الحيتـانَ والأسماكَ تتصرَّفُ مع الإنسـانِ بالطـريقـة نفسهـا . بلْ حتى مَعَ نفسِهَا . نحن معـروفُون بأنَّنا حيوانـات مفْترسَةٌ ، وبأن قويَّنا يأكلُ ضعيفَنَا ! وهذه سُنَّة الحياة . . .

وتنحنَحَ ثم قال :

- وبالمنـاسبة ، وحتـى لا نخرج عن الموضـوع ، أنا أعـرفُ ما يُعجِبُ الإنسان .

فسألتْ شعلةُ بتطَلُّع :

- ماذا يا عمّي أبا سيف؟ لقدْ أعيَانا البحث!

فقال :

- أشْهى أكْلــةٍ عنــدهم هي لَحْمُنَــا نحنُ حيتــانَ السَّيف والتُّون .

وضحِكَ مازِحًا، وأضاف:

- ولكنني لا أنـوي تقديمَ نفسي هـديةً لأيّ كان، حتـى ولو أنقذ حَيَـاتي! ولكني أقترحُ مكافأةَ هـذه الطفلةِ الآدميّة بطـريقةٍ أخرى:

فسألت شعلةُ خائبةَ الأمَلِ من مزاحهِ:

- وما هي ؟

فرفع سيفَه ولوَّح به لهُمَا، وقال:

- إذا كـان لها عَـدُوٌّ، فما عليهـا إلاَّ أن تـدُلَّني عليـه لأطْعنَـهُ بسيفي هذا!

وارتفع عن الأرضِ بخفَّـةٍ تعجَّبَ لها آختـو، رغْمَ ضخـامَـةِ بدَنِـهِ، وانطلقَ كصاروخ نحوَ كثيبِ رملٍ، فطعنـهُ بسيفِهِ حتى شقَّه شطرين! وعاد ليقفَ أمام شُعلة وآختو:

- هكذا! ما رأيكما ؟

فصفَّق لـه آختـو بأيـديـه الثمانيـةِ، ووقفَ يَقْفِـزُ في مكـانِـه ويصيحُ:

– عظيم ! عظيم !

ويُثِيرُ حواليْـهِ الرِّمـالَ، وأمه تضحكُ من حَمَاسـه، وتصفِّقُ، هي الأخـرى، بيـدين فقـط، وأعـادَ الحوتُ عـرضَـهُ، فقـالت شُعلة :

– لا أعتقـدُ أن لصـديقَتِنَا الآدميَّـةِ أعـداءَ بهذا الحجْم! على الأقل في البحر. ولكن شكرا على اقتراحك على أي حال .

وهنا ودَّع القائدُ أبو سيفٍ ضاحكًا مازحًا، وانْصَرَف .

7

وفجأةً أحسَّ آختــو بــالجوعِ والتعبِ والنــومِ، فأخــذ يبكي . . . وسألته أمه :

- ما لَكْ ؟

فأخذ يجرها من إحدى أيْديهَا، وينْتَحِبُ :

- تعالَيْ نَعُدْ إلى دَارِنَا! أريدُ أن أتعشَّى وأنام .

فضحكتْ أمه وقالت :

- ألا تريدُ أن تبحثَ لصديقتك وردةَ عنْ هدية ؟

- نبْحثُ عنها غدا .

فربتت على رأسِهِ بإحدى أيديها، وقالت :

- لا نستطيع الرجوعَ إلى دارنَا الآن . فقـد ابتعدنا عنها كثيرا . ولكن خالتي تسكنُ قـريبًا من هنـا، فلنذهبْ لزيـارتِهَا وقضَاءِ الليلِ عندها .

وناما تلكَ الليلة عند الخَالة .

8

وفي الصباحِ استيقظَ آختو معَ أولِّ أشعَّةِ الشمسِ التي اخْترَقتْ سطْحَ الماءِ، وخرجَ إلى الحارةِ يلعبُ مع صغارِ الإرْبِيَانِ والسَّرطانَاتِ، ويُداعبُ القواقِعَ والمحارَ وفراخَ الحجِيلَةِ وأبي نتَّاف ويأكُلُ من فوَاكِه المنطقة الشهيَّة.

واجتمع عليه صغارُ الأسماكِ يسألونه من أين جاء؟ ولماذا؟ فقال لهم:

- جئتُ من بلادِ الشواطئ. وبالضبطِ من مكان يُسمَّى «الضاية» على شاطئ مدينةٍ بشريةٍ، على اليابسةِ تُسمَّى «أصيلة». جئنا أنا وأمي لنبحثَ عن شيءٍ يُعْجب الإنسانَ، لنقدمه هديةً لفتاةٍ آدميةٍ أنقذت حياتي.

فانْدَهَشُوا جميعا لسَماعِ قصَّة آختو...

واغتنم هو الفرصةَ، فسألهم:

- هل تعرفُونَ ما يُعجِبُ الإنسان؟

فنظـر بعضُهُم إلى بعـضٍ، وحـرَّكـوا زَعَـانِـفَ أكْتَـافِهِمْ غيرَ عَارفين.

وحينئذٍ خرجتْ من بينهِم سمكـةٌ نحيفةٌ شفَّافةُ الجسمِ كبيرةُ العينين، وقالت:

- أنا أعرف.

فانفجرتِ الجماعةُ ضاحكةً، وأخذُوا يضربُونَ بذُيولهم الرَّمْل أمَامَ وجهها، ويتغامَزُونَ عليها قائلين:

- ها ها ها! أنْصِتُوا إلى شَاحِبٍ! إنَّه يَعرفُ ما لا نعْرِفُه!

وتدَّخَلَ آختو لإنقاذِ شاحبٍ النحيل قائلا:

- دعُوهُ يتكلم.

ونفضَ شـاحبٌ عينيـهِ من ذرَّاتِ الـرملِ، وبلعَ ريقَـهُ بصعوبةٍ، وقال:

- أنا لا أعرِف.

وانفجرتِ الجماعةُ ضاحكةً مرةً أخرى، وهي تقولُ لآختو:

- ألم نقلْهَا لك؟

فقاطَعَهُمْ آختو قائلا :

- دَعُوهُ يتمُّ كلاَمَه .

وحينَ سكتُوا نظرَ إليهم شاحبٌ بعينينِ حزِينتينِ ، وقال :

- ولكني أعرفُ من يَعرف .

ورفعَ آختُو يدينِ من أيديه ليُسْكِتَ الجماعةَ ، وقال :

- من يعرفُ ، يا شَاحب؟

- (مُذْهَبَة) .

وشهقت بعضُ أسْمَاكِ الجماعة ، وتساءلوا بينهم :

- كيف لمْ نُفكِّرْ في ذلك؟

وسأل آختو:

- مَنْ مُذهَبَة هذه ؟

فقال شاحب :

- إنها سمكةٌ ملونـةٌ عاشتْ مدةً طويلةً في زجاجـةٍ مع عائلةٍ بشرية . وحين كبُرَتْ حرَّرُوها .

- أيْنَ يُمكِن أن نجدها ؟

فتطوَّع شاحب :

- أنا آخذُكَ إليها .

وخرجَ من بينِ الجماعـةِ ، فتبِعَه آختو، وسـارَا حتى وصلاَ إلى جُحْرِ السمكةِ المذهبةِ ، ووقفَ شـاحب فنَادَاها ، فخرجتْ من جحْـرها المُظْلم ، ووقفتْ أمـامهُا . ومـا كادتْ أشعَّـةُ الشمسِ تَقَعُ عليها حتى أضاءتْ حَوْلها بجميعِ ألْوانِ قوسِ قُزَحَ . . .

ووقف آختـو ينظرُ إليهَـا مبْهُورًا فـاغـرَ الفم . فابتسمتْ لـهُ سعيدةً بإعجابِهِ بجمَالِهَا ، وسألتْه بلطف :

- أهلا وسهلا بكُمَا ! منْ صديقُكَ الجديدُ ، يا شاحبٍ؟

- اسْمُه آختـو. جاءَ هـو وأمُّه من بـلاد الشواطئ بحثًـا عن شيءٍ يُعْجِبُ الإنسـانَ . وقـد جئـتُ بـه إليكِ لَعَلَّكِ تُجيبينَ عن سؤالِه .

وسألت مذهبة :

- ولكنْ لماذا تريد معرفةَ ما يُعجبُ الإنسان؟

- فردَّ آختو، وقد زالتْ دهْشَتُه:

- نريد تقديمَ هديةٍ لصديقةٍ آدميةٍ أنقذت حَياتي.

- هذا عملٌ جميلٌ يا آختو! الاعترافُ بالجميل فضيلة.

- فهل تعرفين ما يُعجبُ الإنسان؟

فحرَّكتْ مذهبةُ رأسَها، وأجابت:

- ليسَ هنـاك شيءٌ واحـدٌ يعجب الجنسَ البشري بأسْرِه؛ فهوَ حيوانٌ معقَّـدٌ، وليس مثْلَنَا، نحنُ الأسماكَ. وممَّا استطعت معْـرِفتَه، من طُـولِ تجْربَتِي وإقـامتي في غرفـةِ جُلـوسِ عائلـةٍ بشريـــةٍ، أنَّ أذواقَ الآدميينَ تختلفُ، فمنْهـم من يُحِبُّ المالَ والذهبَ والأحجارَ الكريمةَ. وهؤلاءِ هم الأغْلبيةُ، ومن بينهم الإنـاثُ. ومنهـم من يحبُّ العِلْمَ والأدَبَ والفنَّ والحكمـــةَ، ومنهم من يفضِّلُ السُّلطـةَ والشُّهـرَةَ والجَاهَ، ومنهم من يعْشَقُ الرياضةَ والسِّياحةَ ومجالسةَ الناسِ، ومنهم...

فحرَّك آختو رأسَه دائخًا وقال:

- لمْ أفْهمْ شيئًا من هذا!

فقال له شاحب :

- ألَمْ أقلْ لك إنَّها تعرِف كلَّ شَيءٍ عن بني الإنسان؟

فقال آختو:

- أنا أريدُ جوابًا بسيطًا لسؤالٍ بسيط .

فأجابتْ مذهبةٌ :

- سؤالك غيرُ بسيط . على كلِّ حال ، أنا آسفةٌ على إربَاكِكَ بهذا الشَّكْلِ! فدَعْنِي أفكِّرُ في هديةٍ مُناسبةٍ لصديقتِك .

وفكرت قليلاً ، وهي تدورُ حولَ نفسِها ، ثم سألتْ آختو:

- كمْ سِنُّ صديقتكِ هذه؟

- لا أدْرِي ، ولكنَّها طفْلَةٌ في طولِ تلْكَ الشَّجرة .

وأشارَ إلى شجرةٍ قصيرةٍ قريبة .

وعادتْ مذهبةُ تدورُ حولَ نفسِها ، ثمَّ واجهتْ آختو وقالت :

- وجدْتُها ! خُذْ لهَا حِلْيَةً تلْبَسُهَا .

فسألَ آختو غيرَ فاهم :

– وما هي الحِلْيَةُ ؟ وأينَ أجدُها ؟

فعضَّتْ مُذْهَبَةُ على شَفَتِهَا العُلْيَا وقالت :

– سَمِعْتُ من بعضِ الشيوخِ أنَّ هناكَ سفينةً قديمةً تتحدَّثُ عنهـا الأساطيرُ، غـرقتْ في عُرضِ الأُقْيـانُوس، وكـانت تحمِلُ كُنُوزًا من أمريكا اللاتينية إلى أسبـانيَا . وما تزالُ هُناك بجميع ما كانت تحمِلُهُ من كُنُوزٍ.

فسألها آختو:

– ولكن من سَيَدُلُّنا على هذه السفينة ؟

ففكَّرَتْ مذهبةُ قليلا، وقالت :

– هنـاك مَـرِينةٌ عجـوزٌ جـدا، تعيشُ على بُعْـدِ ثلاثـةِ أيـامٍ بليـاليهـا، من هنـا في اتِّجاهِ الجنُـوبِ، تعـرفُ مـوْقِعَ السفينـةِ الغريقـة . فإذا كانت مـا تزالُ على قيـدِ الحياة، وعثـرْتُمْ عليها، فيُمكِنُ أنْ تَدُلَّكُمْ على مكان السفينة .

وهمَّ آختو بالخروج، فاسْتوقَفَه شاحب ليسْأَلَ مُذهبة :

– ولكنْ ما اسمُ هذه المَرِينةِ العجوز ؟

- اسمُهَا (سَدَاح). .

- هذا اسمْ شائعٌ بين المرَاينِ، فما أوصافُهَا ؟

- إنها عجُوزٌ مُسنّةٌ جدا. وقـد فقدتْ أسنانها وبصرها، ولها شَعرٌ طويلٌ يُضرَبُ به المثلُ.

وهمَّ آختـو بالانصرافِ، فـاسْتوقفهُ شَـاحبٌ، مـرَّةً أخرى، مُصِرًّا على التَّدْقيق وسأل:

- وفي أيةِ مدينةٍ من مُدُنِ البَحْرِ تسْكُن؟

- إذا لم تخُنِّي الـذاكـرةُ فإنها تسكـنُ في مـدينـةِ (الأغْـوار)، والجميعُ يعْرِفُهَا هُناك.

ولم تُخْفِ مُذْهَبَـةُ إعجابَهَا بذكـاءِ شاحِب، فَرَبَتَتْ بجنَـاحهَا على رأسِه وقالت:

- أنت وَلدٌ مدَقِّقٌ، وسوفَ تنْجَحُ في حَيَاتك.

وشَكَر آختو السمكةَ مُذهبةَ بحرَارةٍ قائلا:

- لا أدْري كيفَ أشكُرك على هذه المعلومات الثمينة. . .

فأجابتْ مبتهجَةً بأدَبِه :

- شُكْرِي هُوَ حِرْصُكَ على الاعتِرَافِ بالجميل .

وانطلقَ آختو، وخلْفَهُ شَاحبٌ إلى حيث كانت أمه تنتظره في جُحْرِ خَالتِها .

وحينَ أخبرهَا بما فعَلَ فرحتْ كثيرا، وعانقتهُ، وقبّلته . وحاوَلَ هو الفكَاكَ منها خوفًا من أن يظنَّهُ صديقُه الجديدُ شَاحِبٌ طفلا صغيرًا تفْرَحُ به النِساء !

وربَتتْ خالةُ أمِّه على رأسِهِ مُهنِّئَةً :

- عافاك! عافاك! يا آختو. إنك ولدٌ ذكيّ .

فأشار آختو إلى شاحب الذي لا يكادُ يُرَى لشفافيةِ جِسْمِهِ، وقال :

- الفضلُ في ذلك يرجع إلى صديقي شاحبٍ هذا .

وحينئذٍ فقط رأتْهُ الأخطبوطتان، فمدَّتا يدين من أيديهِمَا السِّتَّ عشْرَةَ لمُصافحتِهِ وتهنئتِه .

وفي تلكَ اللحظة ودَّعتْ شعلـةُ خالتَهـا ، وأمسكتْ بإحدى أيدي ابنها آختو، وانطلقتْ نحوَ الجنوب .

ولمْ تكُنْ تتـوقَّفُ إلاَّ عنــد مُفْتَرَقِ طُـرقٍ مُتشَعِّبٍ لتسألَ عن الطريقِ الصحيحِ إلى مدينة الأغوار.

9

وفي مساءِ اليومِ الثالثِ، وصلاَ مشَارِفَ المدينة، وكانت تقعُ على حِفافِ المياهِ الـزَّرْقَاءِ، أو ما يُسمّيهِ أسماكُ الشـواطئ بالغَوْرِ السَّحيق.

ولم يجدَا صُعـوبـةً في العُثورِ على جُحْـر سـداح، فقـد سأل آختو أولَّ فرْخٍ لقيَاهُ من فِراخ المَراينِ، فقال لهُمَا:

- تَعَاليَا معي؛ أنا كذلك ذاهبٌ إلى دارِ عمَّتِي سَداح؛ فهي تحكِي لنا قصّةً كلَّ أربعاء.

ففتحَ آختو عينيْهِ الناعستينِ للمفاجـأةِ السَّارَّةِ، وصاحَ قافزًا في مكانِه من الفرح:

- قصّة! حقيقة؟ هل يُمكِنُ لي أن أسمَعَهَا أنا معكم؟

فحرَّكَ الفرْخُ رأسه غير عارفٍ وقال:

- لا أدري؛ فهي لا تقبَلُ من الصغارِ إلاَّ أصْحَـابَ النّتائِجِ والدرجـاتِ الجيِّدةِ في اختباراتِ الأسبـوع وتمارينِهِ. فكيفَ هي نتائجك؟

وهنـا نظـرتْ إليـه أمُّـهُ نظـرةَ عِتَـابٍ على كَسَلِـهِ وتهاوُنِـهِ في دراستِهِ. ولكنَّها عادتْ فأنقذتِ الموقفَ قائلةً للفرْخ :

- نحنُ لسْنَـا من هذه المدينـة . آختو لم يأتِ بنتـائجِ دراستِه معه .

فقال الفرْخُ :

- على هذا الأسـاس قد تقبلكُما بشكـلٍ استثنائي . أمَّـا مَعَنَا نحنُ فهي عنيدةٌ وشديدةٌ ، ولا ينفعُ معها استعْطافٌ ولا بُكاء .

وبعدَ مُـدّةٍ من السَّيْرِ بين الدرُوبِ والأزقَّة والأسواق العـامرة بـالأسماكِ ، تـوقَّف الفـرخُ أمام قُنفـذٍ بحـري طـويل الشـوك ، وهمسَ في أذنِـه فتحـرك ، فإذا بـه كــان يقف على بـاب جُحْـر عميق .

وسمع آختو وأمُّه الفرخَ يقولُ للقُنْفُذِ :

- هذه الأخطُبُوطةُ وابنها جاءا من بلدٍ بعيدٍ لزيارةِ سَدَاح .

فقال القُنفذُ مُرَحِّبًا بهما :

- تفضَّلا . . . ولكن لا تتكلَّما معها حتى تنتهيَ من الحكاية . فقد بدأتْ تحكِي ، وهي لا تُحِبُّ من يُقاطِعُهَا . فادْخُلُوا بِهُدوء .

ودخل الثـــلاثـــةُ صــامتين، وبحثـــوا بين الأسماك الصغيرة المتزاحمة عن مكانٍ جلسوا فيه يُنْصِتُون.

كـان الجُحْـرُ واسعـا من الـداخل، عـالِيَ السقفِ، مُضَـاءً بسِرْبٍ من سَمَكِ الشُّطُّـونِ(*) الفُـوسفُـورِي الســابح قُـرْبَ السقفِ، والمَرِينَةُ (سَدَاح) مُلْتَوِيةً على سـاريةٍ منَ الرُّخامِ، وقد انتشرَ سـالِفُها الشهيرُ حـولَهَا، وهي تحكي، والأسماكُ الصغيرةُ تنظرُ إليها مفْتونَةً فاتحةً أفواهَهَا باديةَ الخَيَاشِيم.

(*) سمك شبيه بالسردين لكنه أصغر. (الانشوا) بالفرنسية.

10

كانت تقول:

« . . . وكنتُ في ذلكَ العهدِ صغيرةً وطائشــةً حمقاءَ، وكانت أمي، رحمهــا الله، تُحذِّرُني من الاقترابِ من المراكبِ، وتقــول لي: «إنها تحمِلُ أخْطَرَ حيوانٍ في البرِّ والبحْرِ. . . الإنسان!

ورغمَ تحذيـرها كـان فُضولي ورغبتي في معـرفةِ هـذا الحيوانِ المخيفِ لا يُقـاوَمَان، وجـاءتْ فُـرصَتي في ليلةٍ مُقْمِـرَة، وكنتُ ألْعَبُ مع زميلاتي خـارجَ جُحرِنـا، فإذا بالدنيـا تُظْلِمُ فجأةً من حولِنا، وهـربتْ زَميلاتي، وبقيتُ لعلي أكتشفُ سببَ الإظلامِ المفاجِئ. ورفعـتُ عَينيَّ فإذا بطنُ سفينةٍ تـرسُو فوقَنـا فيحْجبُ ظِلُّها ضـوءَ القَمَرِ عنَّا. كانت شبيهـةً ببطنِ عنبَرٍ ضخم. وبعد لحظةٍ من وقـوفِها سمعتُ هديـرًا يُصِمّ الآذانَ، وإذا بمِخْطافٍ حديـدي ضخْم ينـزِلُ نحْوِي مـربُوطًـا بسلسلةٍ غليظـةٍ، وكادَ يسحقُني لوْ لمْ أُسَارعْ بالابتعاد!

واختبأتُ في مدخل جُحْرِنا وقلبي يَدقُّ منَ الفَزَعِ، وأنا انتظرُ أن ينزلَ إلينا بَنُو الإنسانِ لافْتِرَاسِنا. وبدلاً من ذلكَ، وقعَ شيءٌ لم أكنْ أتوقَّعُهُ. نزلَ من السفينةِ ما يُشْبِهُ المَطَرَ من قِطَعِ الطعامِ الشهيَّةِ جدًّا، والتي لم نكن نعرفُها في مِنْطَقَتِنَا. وخرجتِ الأسماكُ لتَذَوُّقها والاستمتاع بِها. وشجَّعَنِي ذلك، فصعدتُ، أنا الأخْرَى، إلى قُربِ السطحِ لأَلْتَقِطَ القِطعَ الكبيرة اللذيذة.

وفعلاً لمحتُ قطعةً صافيةً في حجْم فمي، فأسرعتُ إلى ابتلاعِها قبلَ أن تَسْبِقَني إليها سمكةٌ أكبرُ منِّي. وكنتُ أقولُ في نفسي: «ما أسْخَفَ نصَائحَ أمِّي! فإذا كانَ هذا هو الإنسانَ فهوَ في الحقيقةِ مخلوقٌ طيِّبٌ كريم».

ولكنْ لمْ أكَدْ أبتلِعُ القطعةَ الشهيةَ حتى أدركتُ خطأَ تَسرُّعي، وطعنِي في نُصْح أمي، فقد كانت قطعةُ الطعام مجرَّدَ طُعْمٍ، ترقُدُ بِداخِلِه صنَّارةٌ حادَّة، دخلتْ في فكِّي وعلِقَتْ به. وحاولتُ الانفلاتَ بكلِّ قوّتِي فلمْ أفْلِحْ. كانت قوةٌ أكبر منّي تسحَبُنِي إلى أعلى. وفي لحظةٍ وجدتُ نفسي على ظهرِ

السفينةِ بين يـديْ حيَوان آدمِي قـاسٍ عنيف. وأمسك بعنُقِي، وأزالَ الشّصَّ من فكِّي، ورماني في سلَّـةٍ بجانبـه، وعادَ إلى مَلْءِ الصنـارةِ الغادِرَة بـالطُّعمِ وإلقـائِها في الماء، ليبتلِعهَـا مُغفَّلٌ أو مغفلة مثلي.

وكـان يجلسُ إلى جـانبِ الآدمـيِّ الـذي صَـادَنِي آدميٌّ آخـرُ يَشْرَبُ سائلاً كريهَ الرائحَةِ من قِرْبَةٍ جلْدٍ، ويبادلُه الحديث.

وفهمتُ من كـلامِهِمَا أنَّ المركَبَ جـاءَ من الطَّـرفِ الآخَـرِ للغَوْرِ السحيـق الذي أطْلَقَ عليـه البشرُ اسمَ أمريكـا. وكانَ مُحَمَّلاً بكنُـوزِ دُوَلِ (المَايَا) و(الأزْتِيـكْ) و(الإِنْكَا) القـدِيمة. وكـان المركبُ تابعًـا لقـائد أسباني كبير يُسَمَّى (كـورْطِيس). وممَّا حكـاهُ عنهُ البحَّـارَانِ فهِمتُ أنه كان رجُـلاً شَرِسًا قـاسيا غـادرًا ماكـرًا. . فقد استطَـاعَ أن يقبِضَ على ابنِ أحَدِ مُلُـوكِ الهنودِ، ويطلبَ مـن أبيهِ أن يفْتَدِيَـهُ بغُرْفَـةٍ مليئَةٍ بـالذَّهب. وبعدَ أنْ ملأَ له الملكُ الهنْديُّ الغـرفةَ بالذهبِ رفَضَ كورطيس أن يُسلِّمه ابنـه. ولمْ يَكْتَفِ بذلك، بلْ صَلَبَـهُ وأحْرَقَـهُ حيًّا في ساحةٍ عامَّة».

وسرتْ شهْقَةُ فَزَعٍ واسْتِنْكَـارٍ في جميع الأسماكِ الصغارِ الذينَ كانوا يُنصِتُونَ بشوقٍ إلى قصةِ سَدَاح ، وترَدَّدَتْ هَمَسَاتُهم :

- يَا لَهُ من حَيَوانٍ مُتوحِّش !

- يا لَهُ مِنْ هَمَجِيّ !

فرفعتْ سداحُ ذيْلَها لإسْكَاتِهِمْ ، واسْتأنفتْ حكَايَتَهَا :

«نعم . مـا أقْسَى الإنسـانَ على أخيهِ الإنسـان! وزادتْ تلكَ الحكايـةُ في تأكيدِ مـا قالتْـهُ لِي أمِّي عن بنِي آدَمَ . ونَدمْتُ نَـدَمًا شديدا على عَدَمِ سَماعِ نُصحِها والابتعادِ عن الآدمي الغدَّار!

ولكن كـان يبـدُو أنَّ الآدمي الـذي كـان يشربُ السـائلَ القَـذِرَ، كان يُعَـاني أَزْمَـةَ ضميرٍ لمَا فَعَلَـهُ رئيسهُ كـورطيس بـابْن الملك الهنديّ ؛ فقد كان يُرَدِّدُ : «إذا لم يُنْزِلْ علينا اللّهُ صاعقةً أو يُعذِّبْنَا بما فَعَلَـهُ كورطيس بذلك الشـابِّ المسكين فلا أدري ماذا سيكون مصيرنَا في الآخرةِ ؟» .

ومنْ كلامِ هذا البحَّارِ أدركتُ أنَّ البشرَ ليْسُوا كُلّهم أشرارًا . ودَاعبني الأملُ في أن يُطْلِقُـوا سَرَاحي ويُعيـدُوني إلى الماء ؛ فقد

كنتُ أشْعُرُ بـالاخْتِنَاقِ في الهوَاء . وبـدأتُ أدعو الله في سِرِّي أن يُنْجِينِي من هذه المِحْنَـةِ ، وأعاهدُه بأَنَّنِي لنْ أَعْصِيَ أمْـرَ والدتِي أبدًا أبدًا . . .

ولمْ يبدُ أنَّ دُعـائي قد استجيب ؛ فقد انضمَّ إليَّ بالسَّلَّـةِ عددٌ آخـرُ من الأسماكِ التي كانتْ تموتُ بسرعـةٍ لافْتِقَارِهـا إلى الماء ، وحمِدْتُ الله على أنني مـرينـةٌ ، وأنَّنِي قـادرةٌ على المقاومـةِ مُـدَّةً أطْوَلَ .

وكـان يبـدو أن المَرَكَبَ غَيْرُ قادِرٍ على الحَرَكَـةِ بسبب هُـدوءِ الهوَاء ؛ فقد كانت قلُوعُهُ خاويةً مُدلاَّةً من صوَاريها .

وانتهى البشريُّ الـذي كـان يشربُ من قِـرْبَـة ، فطلب منـه الصيَّادُ أن يأتِيَ بِمِجْمَرٍ يشوينا عليه ، نحن الأسماكَ ، ليأكلانا .

وهنا صُعِقْتُ أنا ، وبـدأتُ أتمنَّى وأدعو الله أن يقبِضَ رُوحي قبل أن يحرقوني حيَّةً ، كما فعلوا بالأمير الهِنْدِي .

وجـاء الـرجـلُ بـالمِجْمَـر ، وهـو يتمايَلُ ، حتـى يكـادَ يقعُ ، والصيَّادُ يضحكُ عليـه . ويبدو أنـه كانَ تحتَ مفعـولِ مشرُوبه

الحَادِّ. ووضَعَ المجْمَرَ، ومدَّ يَدَهُ إلى السَّلَّةِ فأمسكَ بي بأصَابعَ غليظــةٍ مُشَقَّقَــةٍ، ولكنِّي استطعـتُ الانْــزِلاقَ من خِـــلالَها والانْفِـلاَتَ إلى قَعْـرِ السَّلَّـة ممَّا اضْطـرَّهُ إلى اخْتِيـارِ سَمَكَـةٍ من الأسماكِ البيضاءِ الميِّتة.

وبعْدَ أن أكَـلاَ كلَّ ما كانَ بـالسَّلَّةِ من سمكٍ أبيض، خِفْتُ على نفسي، والْتَصَقْتُ بجـانب السَّلَّـةِ حتى لا يَـرَيَـاني، ولكنْ كان يبدو أنهما شَبعـا وارْتَوَيَا ممَّا شربَـاهُ من زِقٍّ بجانِبَهم، وقَعَدا يُغنِّيَانِ، ويتجشَّآنِ في نشْوةٍ ومرَح.

«ومال الأولُ على الصيَّادِ وهمسَ له:

- هل تستطيعُ أنْ تكْتُمَ سرًّا؟

- طبعا.

- سرًّا خطيرا، وخطيرا جدا!

وتحرَّكَ فضولُ الصيادِ، فاقتربَ منهُ قائلا:

- أنت تعرفني جيدا؛ بئرٌ بلا قعْر!

- إذا أنت كشفته لأحدٍ كانت فيه نهايةُ حياتِكَ وحياتي.

- يا إلهي! لا بدَّ أنـه سرٌّ خطير جدا، وكبيرٌ جدا، بحيثُ لا تستطيعُ حَمْلَه وحدَك!

فتنهَّدَ البحَّار الأولُ، وقال:

- صدقتَ، لقـد ضِقْتُ بِه ذَرْعًا طُولَ هـذه المدَّةِ. وأريدُ أن يُشَارِكَني أحدٌ في حمْلِ عِبْئِهِ الثقيل.

- سَتجِدُني حجرًا أصمَّ.

ونظر الأولُ حواليهِ، ثم اقْتَرَبَ من أُذُنِ الصيادِ وهمس:

- ربَّانُ سفينتنا (فالديز) يريدُ بملِكَتِنَا (أصابيلا) شرًّا.

- ماذا؟!

- إنه يُريد الاستيلاءَ على عرْشِ أسبانيا.

- وكيفَ عرفْتَ؟

- سمعتُـهُ يـردِّدُ ذلك، ونحن في إحـدى الغـابـات دون أن يراني.

- ربما كـان يردد حُلمًا من أحـلامِ يقَظَتِـه بصـوتٍ عالٍ! وكلنـا نحلُمُ بالعظَائِم، ولكنَّ تحقيقَ تلكَ الأحلامِ قد يكونُ مسْتحيلاً.

فزادَ البحَّارُ اقترابًا من زميله، وقال:

- ليسَ على فالديز؛ فهو يملكُ وسيلةً لتحقيقِ أحلامِه.

- وما هي هذه الوسيلة؟

- هذا هو قلبُ السِّرِّ الذي يعتقدُ فالديز أنه يعرفُه وحدَه. فقد عَثَرَ في أحَدِ مخابئ هنودِ (الإنْكَا) على عصا سحريةٍ قال له كاهنُ المعبَدِ: «إنها تُسَمَّى صولجانَ الحِكْمَةِ، تُحقّقُ عشْرَ أمانيٍّ». وكُنْتُ أنا أستمعُ من خلفِ شجرةٍ إلى الحديثِ الذي كان يتمُّ عن طريقِ ترجمانٍ هندي.

- وهل صدَّقْتَ ذلك؟ أنتَ تعرِفُ أن الهنودَ مُشَعْوِذُونَ وخُرافيُّون.

- لا! لمْ أصدِّقه حتى رأيتُ الدليلَ بعينيَّ هاتين.

- كيف؟

- تبعتُ فالديز والترجمانَ وسَط الأدْغَالِ الكثيفةِ. ولا بدَّ أنَّ (فالديز) شَعَرَ أن التُّرجمانَ الهندي يريدُ الاستيلاء على العصا السحريةِ، فتركَهُ يبتعِدُ عنه قليلا، ووجّهها نحوهُ، وقال لها:

«احْرِقي التُّرْجمان» . وفي اللحظةِ نفسِهـا اشتعلتِ النارُ في جسدِ الترجمان الهنـدي حتى صَارَ شُعْلـةً آدميـةً تصرُخُ وتجري وتَحْتَكُّ بالأشجارِ والأرضِ لإطفاءِ اللهب ، دونَ جَدْوى .

وفتحَ الصيادُ فمَهُ متعجِّبا :

– يا إلهي ! وماذا فعلَ بعْدَ ذلك ؟

– سَمِعَتْ قريـةٌ هنديةٌ صراخَ الترجمانِ فخرجـوا ينظرون . . وحين رأوا جثَّـة ابن جنسهم محروقـةً تبِعـوا آثـارَ فـالـديـز بين الأدغَالِ . كـان يريدُ الفرارَ منهم حتـى لا يُضْطرَّ لتبذير أمـانِيه العَشْرِ . ويبـدو أنهم لحِقـوا به فـاضطُـرَّ إلى التخلُّص منهم عن طريقِ العصـا السحريـة . وحين تخلَّص منهم وجد نفسـه هائماً على وجهـه ، داخلَ الأدغـالِ ، فكان عليـه أنْ يستعمِلَ العصـا مرةً ثالثـةً ليعودَ إلى الشاطئ . وهكذا ضيَّعَ بعضَ أمانيـه الغاليةِ بحماقةٍ كبيرة . ولكن مـا تزال بالعصا سَبْعُ أمـانيّ يمكنُ أن ينفِّذَ بها خطَّتَه الجهنميةَ في أسبانيا .

ولم يكَدْ يُتِـمُّ كلامَهُ حتـى خرج لهُما رجُلان ، أحـدُهما أبيضُ يلبسُ مـلابسَ فخْمـةً كثيرة الألـوانِ والريـشِ ، لا بُدَّ أنـه كـان

فالديز ربَّان المركبِ، والثاني عملاقٌ أسودُ أبْكَم.

وأمسكَ كلٌّ منهما بأحَدِ البحَّارة فطعنه بخنجرِه، ورميَا بهما إلى البحرِ فنزلا إلى القَعْر بسرعةٍ، واجتمعتْ عليهما القروشُ الكاسِرَةُ فافترَسَتْهُمَا، ومزَّقتهما إرْبًا إرْبًا.

وكنتُ أنا أتفرجُ على ما يحدُث وأرتَعِدُ من الذُّعْرِ! خُصوصًا حين التقطَ الرجلُ الأسودُ القَصَبَةَ التي كان يصيدُ بها البحارُ، وكسرها ورماها في الماءِ. ورأيتُه ينظرُ إلى السَّلَّةِ بعينينِ حمْرَاوَيْنِ، فقلْتُ: «لا بدَّ أنه سيفعلُ بي ما فعلَ بالبحَّارَيْن». ولكنه رَمَى بالسلَّةِ إلى البحرِ، دونَ أن ينظرَ إلى ما بداخلها.

وبَقِيَتِ السلةُ تسبحُ بي فوقَ الماءِ، وأنا أتنفسُ لأوَّلِ مرةٍ داخلَ الماء الباردِ الذي كان يغمُرُني، وأسْتَرِدُّ قُوَايَ المنْهُوكة.

وهبَّ نسيمٌ خفيفٌ جعَّدَ وجهَ الماءِ، ولم يَلْبَثْ أن تحوَّلَ إلى هواءٍ غربيّ ملأ قلوعَ السفينةِ، وبعثَ الحركَةَ والحياةَ على ظهرِها، فبدأتْ تتحركُ رافعةً مرْسَاها.

ولكنَّ الهواءَ لم يلبثْ أن تحوّل إلى ريحٍ عاتيةٍ، فعاصفةٍ مزَّقَتْ قُلوعَ السفينةِ، وحوَّلَتْهَا إلى سُيُورٍ متهدِّلَةٍ! وارتفعتِ الأمواجُ فَغَرقتْ بي السلةُ إلى القعرِ.

وتحولتِ العاصفةُ إلى إعْصَارٍ هيَّجَ البحرَ، ومَخَضَهُ مَخْضًا شديدًا، ولعِبَ بالسفينةِ الثقيلةِ حتى صارتْ كريشةٍ تُغَطِّيها الأمواجُ من كل جانب!

ولم تلْبثْ أن انشطرتْ شطرينِ وابْتَلَعَهَا المُحِيط!».

11

وسكتتِ المرينةُ العجوزُ، والتفَّتْ بالساريةِ الرُّخاميةِ، وهي تلْهَثُ من شدَّةِ المجهودِ الذي بذلتْه في الحكاية . . .

وتنفَّسَت الأسماكِ الصغارِ جميعها الصُّعَدَاءَ. وحَمِدُوا اللّهَ على أنها مُجَرَّدُ حكايةٍ. فقد كان بعضهم يعتقدُ أنَّه سيجدُ الإعْصَارَ بالخارِجِ حين يخرجُ، ولن يستطيعَ الذهابَ إلى جُحْر أهْلِه.

وحين استراحتْ سَدَاحُ قليلا رفعتْ رأسهَا فهدأتْ أصواتُ الصغارِ، فقالت وهي تخْتِمُ القصةَ:

«وحين هدأ الإعصارُ، بَقِيَتْ بعضُ ألْوَاحِ السفينةِ وقُلُوعِها وصواريها طافيةً على وجهِ الماءِ. أما الكنوزُ التي سَرَقَهَا الأسبانُ من الهنودِ الحُمْرِ، فقد انْحدَرَتْ إلى الغوْرِ السحيقِ، وهي ما تزالُ هناكَ منذُ ذلكَ العهدِ حتى الآن».

وهنا هَمَسَ آختو لأمِّه شُعلة:

- ذلك هو الكنزُ الذي قالتْ لنا عنْهُ مُذْهبة. اسْألِيها أينَ يوجَدُ بالضبط ؟

فأسْكَتَتْهُ أمه قائلة :

- ليسَ الآن. حتى يخرجَ الأطفال.

وهنا تثاءَبَتْ سداحُ العجوزُ، وأشارتْ بذَيْلِهَا إلى الصغارِ:

- صَبَّحكُم اللّهُ بالخير. .

فردّوا كلُّهم بصوتٍ واحد :

- صبحك اللّـه بالخير، يـا جدَّتَنَـا سداح! وشكـرًا لكِ على الحكاية.

فـارتسمت على وجـهِ المرينـةِ العجـوزِ ابتسـامـةُ ارتيـاحٍ ورِضَـا. وأخـذ صغارُ الأسماكِ يخرجونَ ليلْتقـوا أهليهم خارجَ الجُحْر.

وحين خرج الجميعُ اقتربتْ شعلةُ وابنُهـا من منَصَّةِ سَدَاح، والقنفـذُ الحارسُ خَلْفَها. وأحسَّتْ سـداحُ باقترابِهما، فـرفعتْ رأسَها بقُوَّةٍ، وسألتْ بصوتٍ حادٍّ:

- من هناك؟

فتكلّم القُنْفُذُ:

– أنا يـا سيدتي . عنـدنا الليلةَ ضيـوفٌ جاؤوا لـزيارَتكِ من بلادِ الشواطئ .

– ضيوفٌ من بلادِ الشواطئ ؟ أهلا بِهم وسهلا .

وتقدمت شعلةُ فسلَّمتْ عليها ، وقالت :

– أنا الأخْطبُوطُ شُعلة ، وهذا ابني آختو.

ودفعتْهُ نحوَها ، فسلَّم عليها هو أيضا ، فقالت :

– أهـلا بِكُمَا في بـلادِ (جُـرْفِ الغَـوْرِ) . مـاذا جـاء بِكُما من بَلَدِكُما البعيدِ إلى هنا ؟

فقالت شعلة :

– أرْسَلَتْنَـا إليـكِ (مُـذْهَبَـةُ) لتَـدُلَّيْنَـا على سفينــةِ الكنـوزِ الأسبانية .

– وماذا تريدانِ من السفينةِ ؟

– نُريدُ تقديمَ هديةٍ مناسبةٍ لصديقةٍ آدمية .

فظهرَ الانفعالُ فجأةً على وجهِ سداح العمياءِ ، وقالت :

- هديةٌ لآدمية ؟ هل جُنِنْـتِ؟ ألمْ تسمعي ما حكيتُهُ اللحظةَ عن تصرُّفَـاتِ بني آدَمَ ؟! وأنتـم سُكَّـانَ الشـواطئ، أدْرَى بهذا الجِنْسِ . فقد لـوَّثَ الشواطئ بـالزفْتِ والقطـرَانِ والكيماوِيات المسْمُـومَـة التي قَضَتْ على مـلايين بيضنـا وأنْـوَاعِنَـا . وكيفَ تظنينَ أنِّي فقـدْتُ بَصَري؟ لقـد تعرَّضْتُ لانْفجـارِ قُنبلـة أعْمَاقٍ وأنـا أتفرَّجُ على غـوَّاصَةٍ أثنـاءَ إحـدى حُرُوبِ البَشَرِ المُخيفـةِ . فكيفَ تريدينَ تقديمَ هديةٍ لهذا الجنسِ الفتَّاك ؟

فقالت شعلة :

- صـدِّقيني ، يـا جـدَّتِي ، إنَّ هـذِه الآدميـةَ تختلفُ عن بني جنسِها ؛ فقد أنقذتْ ولدي آختـو من موتٍ مُحقَّقٍ على يد صيَّادٍ مُجرم كـادَ يطعنُهُ بسهْمٍ حـديـدي . وقد عـرَّضتْ كفَّهـا للسهمِ دِفـاعًـا عن حيـاتِـه . ولا أريـدُ أن يعتقـد بنـو آدَمَ أننـا ، نحنُ الأسماكَ ، لا نَعْتَرِفُ بالجميل .

فحرّكتْ المرينةُ العجوزُ رأسَها غيرَ مقتنعة ، وقالت :

- عَاغْ! لا بد أنَّها كانت تـريدُ ابنكَ لنفسِها ، ولم تكن تحْميهِ لِوَجْهِ اللهِ .

- أبدًا يا جدَّتِي! فقد حَمَلَتْهُ من البركةِ التي كان فيها، ونقلَتْهُ إلى البحرِ الكبيرِ حتى لا يتعرَّضَ للخطرِ مرةً أخرى . . .

- عَاعْ ! لا أصدِّقُ ذلك . . .

- صدقيني يا جدتي . . . فقد بدأ بعضُ البشرِ يتغيرون . ألمْ تسْمَعِي بجمعياتِ الرِّفْقِ بالحيوان ؟

- لم أسْمَعْ بجمعيةِ الرِّفقِ بالأسماكِ .

ويَئِستْ شُعلة، فسكتت .

وارتفَعَ صوتُ آختو باكيًا خائِبَ الأمَلِ من موقفِ سداح، فقالت هذه :

- لن ينفعَك البكاء، يا ولدي! فقد أقسمتُ أمامَ جميعِ سَمَكِ المُحيطِ ألاَّ أفعلَ إلاَّ ما يضرُّ بالإنسانِ . ولا أستطيعُ التراجُعَ عن قَسَمِي .

ونادتِ القُنْفُذَ وقالت له :

- أكْرِمْ ضيفينا، وخُذهُمَا إلى غرفةِ الضيوفِ لينَامَا .

وناما تلك الليلة يحْلُمان أحلامًا مُزْعِجَة .

12

وفي الصباحِ تركَ آختو أمَّه تُفْطِرُ مع سداح المرينةِ العجوزِ، وخرجَ يلعبُ ببابِ المغارَةِ ويَسْتَكْشِفُ مدينةَ (حِفافِ الغور).

وسأل آختو القُنفذَ الحارسَ:

- لماذا سُمِّيتْ المدينةُ بحفافِ الغور ؟

فأجابه القنفذُ:

- لأنَّها تقعُ فعْلاً على حِفافِ الغوْرِ السحيق.

- وأينَ هُوَ الغَوْر؟

فأشار القنفذ غرْبًا، وقال له:

- حَذَارِ من الانزلاقِ إليه، فهو مظلمٌ، وعامرٌ بالغِيلانِ والعفاريت...

وخافَ آختو، ولكنَّ فضولَه كان أقوى من خوفِه. فتقدم بحذرٍ. ولم يكدْ يصِلُ إلى نهايَةِ الزُّقَاقِ حتى رأى حِفافَ الغورِ

العميق. فوقف على شَفيرهــا وأطلَّ بعينينِ امتــزجَ فيهما الحَذَرُ والخوفُ والانْبِهَار. . .

وقال لنفسه بصوتٍ مرتفع:

- إذا كان الكنزُ مدفونا هنا فلا فائدةَ من البحثِ عنه!

وأحسَّ بخيبةِ الأملِ، ومـرارةِ الفشلِ بعد الرحلةِ الطـويلةِ، فقعدَ على صَخْرةٍ يبكي.

وبينما هو كذلـك، إذ سمِعَ قهقهةً رقيقة كزقـزقةِ العصافير. ورفع رأسَه، فـإذا (دلفين) يقفُ أمامَه على سطـحِ الغورِ يُحَاوِلُ تسلِيَتَـه بحـركـاتٍ بهلوانِيـةٍ. ولمَّا لمْ يضحكْ آختـو اقترَبَ منـه بخَطْمِهِ الكلبِي البَارِزِ، وسأله:

- ماذا يحزنُك أيها الأخطبوطُ الصغير؟

وفتح آختو فمه ليحكيَ له، ولكنه خافَ أن يكونَ جوابُه هو جواب المرينـةِ خناثة نفسه، ورُبَّما أعْنَفَ، فقـرَّرَ أن يكذِبَ على الدلفين البهلوانِ، وقال:

- جئتُ أنا وأمي لـزيارةِ أحدِ أقـارِبِنا بمكانٍ يقال لـه (كنز كورطيس)، ولكننا لم نجدْ أحدًا يدلّنا عليه.

وفوجئ آختو بصوتِ أمِّه من ورائِه :

- لا يـا آختــو، لا تكـذِبْ على السيـد دلفين! فَقَصْــدُنَـا شَريف، وكذلك يَجِبُ أن تكونَ وسائِلُنَا. والكذبُ شَرّ.

فاحتجَّ آختو:

- ولكنها كِذْبةٌ بيضاءُ. لا شرَّ فيها.

- ومع ذلك فهي كِذْبة.

فغضبَ آختو وقال :

- وماذا حَصلْنَا من وراءِ الصِّدْقِ حتى الآن؟

فَزَعِقَ الدلفين في وجههِ :

- عيبٌ يا آختو ! لا ترفعْ صوتَكَ على أُمِّك!

وتوجَّه إلى (شعلة) وقال :

- اسمحي لي أن أقدِّمَ نفسي يا سيدتي، اسمي (ضاحِك)، وأنا من سكَّانِ الغورِ، وفي خِدْمَتِك!

فمدَّت (شُعلة) إحْدَى أيديها مُصافحةً له، وقالت :

- شكرا لك، وأنا (شعلـة)، وهذا ابني آختو. نحن نبحثُ في الحقيقةِ عن شيء يُعجِبُ الإنسـانَ، لتقديمِـه هديـةً إلى فتاةٍ آدمية أنقـذت حياةَ ابني هذا. وكلُّ الـذين سألناهم من جنسِ السمكِ وجدناهم يكرهُون الإنسانَ، ويرفضونَ المساعدة.

فضحك الدلفين، وقال:

- شيءٌ غـريب! ولكنَّ مشْكِلَتكُمَا انتهتْ. انتهت تمامًـا، وفي هـذه اللحظة؛ فقـد التقيتما حوتًـا يُحِبُّ الإنسانَ ويُقـدِّرُ مزاياه.

وانْحنى أمامهُمَا بحركةٍ مسرحِية:

- إنه يقفُ أمامكُمَا.

وقفز آختو فرحًا حتى سقطَ في الغَـوْرِ، فدخل ضاحك تحتهُ وأخـرجـه، وطلب من شعلـة أن تـركَبَ هي الأخـرى ظهـرَهُ، وتَلْتَصِقَ به جيدا.

وصعـدتْ شعلـةُ، ووضعت آختـو أمـامهـا، وألْصقَتْ مصَّـاصاتِ أيـديها الثمانية بظهـرِ الدلفين، وهمستْ لآختـو أن يفعلَ مثل ذلك.

وغـاص بهما ضاحكٌ إلى أعماقِ الغـورِ، وهـو يحكي لهما عن مغـامــراتِـه مـع بني الإنسـان، وكيف أن المراكبَ تُلْقِـي إليـه بالأكل الشَّهِيِّ ، وكيف أنه أنقذ عـددا من البحارةِ والمسافرين سقطوا من مراكبهم، أو غَرِقَتْ بهم سُفُنهم أثناءَ العواصف!

13

وبعـدَ رحلـةٍ دامتْ طَـوَالَ النهـارِ وطـرفًـا من الليل تـوَقّف ضاحكٌ، أوقفتْهُ شُعلةُ، وأخبرتْـهُ أن طفْلَها آختو جاعَ وتعِبَ، فقهْقَهَ ضاحكٌ وقال:

- يـا لي من مُغَفَّل! كيفَ نسيـتُ ذلك؟ ولكننـا اقتربنـا من الكنزِ على أيٍّ حال.

وأرْخَى عَضلاتِـه القويَّـةَ، وهَوَى إلى القعْرِ كطـائرٍ ينزلُ على الأرض. وحين لَـمَسَتْ بطْنُهُ القَعْرَ قال:

- انزِلاَ، أنتما هنا، وسأذهبُ لأبحَثَ لكُمَا عن شيء تأكلانِه.

فقالت شعلةُ وهي تُنزِلُ آختو:

- لا تُتْعِبْ نفسك. سنبحثُ نحنُ عن طعامنا.

وفي تلك اللحظةِ وقعَ شيءٌ غـريبٌ، كان بسـاطٌ من الضوءِ الأصفرِ يقتربُ منهم. وفجأةً تحوّل ظلامُ الليل الحالِكِ إلى ضوءٍ يشبِهُ النهـارَ. فخافَ آختـو والتَصَقَ بأمه، ولكنَّ ضـاحكًا كَتَمَ قهقهتَه المعهودةَ بصعوبةٍ كبيرةٍ، وتحفَّز للانقِضَاضِ!

نظـرَ الثلاثـة إلى أعلى فإذا البساطُ النُّـورَانِيُّ يَمُرُّ من فـوقِهم على مَهَلٍ. وفجأةً انطلَـقَ ضـاحِكٌ كـالسهمِ المارِقِ، فخَـرَقَ البِسَاطَ بجسده القوي.

والتفتَ آختو إلى أمِّه سائلا:

- ماذا يفعلُ ضاحك؟

قالت شعلةُ مُهدِّئةً روعَه:

- إنه يصطادُ لنا بعضَ سمكِ السردِين (والشُّطُّون).

- في ذلك الضوء؟

- ذلك الضوءُ يصْدُرُ عن الفُـوسْفُورِ المُرَكَّزِ في عظامِ وأمْخَاخِ السردين والشطـون. ولـذلكَ أحُضُّكَ على أكلِـهِ، حتى تقـوَى عِظَامُك وعينَاك وذكاؤك...

وبـدأتْ تتسـاقطُ عليهما عشراتُ السردينـات والشطـونـاتِ التي مَضَغهـا ضـاحكٌ وأرسلها إليهم. وأخـذا يأكـلانِ في نَهمٍ والْتِذَاذ!

ونـزل ضـاحكٌ فـانضمَّ إليهما، وهما يشكُـرانِـه على حُسْنِ ضيافته.

وناموا تلك الليلةَ في مغارةٍ قريبة . وفي الصباحِ الباكرِ تركَ آختو أمَّه نائمةً في المغارة ، وخرج يَسْتَكْشِفُ المِنْطَقة .

وبحث عن ضاحكٍ فلمْ يجدْه ، ولكنه رأى ظلَّهُ على القَعْرِ. فَرَفَعَ عينيهِ فإذا بضاحِكٍ طافٍ على وجْهِ الماءِ بِلاَ حراك !

ودقَّ قلبُه بعنفٍ ، ودخل يجري إلى أمِّه فأيقظها لاهثًا وقال :

– أمي . . . أمي . أفيقي ! تعالي انظري إلى ضاحك . إنه مات !

فخرجت شعلةُ منزعجةً ، ونظرتْ إلى حيثُ كان ضاحكٌ طافيًا ، ومسحتْ عينيها وتثاءَبَتْ بغير مُبَالاةٍ أحْنَقَتْ آختو، وقالت :

– أفزعتني يا آختو! إن ضاحكًا نائمٌ ، وهو ينامُ قُرْبَ السطحِ لأنه يتنفَّسُ الهواءَ .

فاستغرب آختو لذلك وقال :

– مثلَ الإنسان ؟

– تمامًا . ولكنه لا يستطيعُ الحياةَ خارجَ الماءِ ، فالشمسُ تحرِقُ جلدَه .

- مثل الإنسان!

- تمامًا. ولكن ليسَ له يَدَانِ ولا رجـلان. وهو يَلِدُ ويُرْضِعُ كالإنسان. ولا يَخْرُجُ من البيض كبقيةِ الأسْمَاك.

- سبحانَ الله! لذلك يُحِبُّ الإنسانَ. لأنه ابنُ عَمِّهِ.

- تماما.

وترك آختـو أمَّه، وذهبَ يتجـوَّلُ في الغابَةِ المجـاورة. وهناكَ عَثَرَ على سِرْبٍ من الأسماكِ الصغيرةِ، فـاجتمعوا عليهِ يسألـونَه عن بلدِه ووجْهَتِهِ في فضولٍ صبياني.

وحين استأنسُـوا به بدأ هـو الآخر يسألُهم عن بلـدهم، وعن مكانِ سفينةِ الكنزِ، فَحَكَوْا له كلَّ ما سمعُوه من كبارِهم.

ولم يفارقهم حتى سمعَ أمَّه تناديه، فودَّعَهُمْ، وعادَ إليها.

وضحكَ ضاحكٌ حين رآهُ وسأله:

- ألم تكن تعرفُ أنني أتنفسُ الهواءَ؟

وحين أفطـروا بما بقيَ من أسماكِ الأمسِ ركبتْ شعلةُ وآختـو متْنَ ضاحكٍ، وانطلقوا يمْخُرون عُبَابَ المُحيط.

وفي مُنْتَصَفِ النهارِ توقَّفَ ضاحكٌ وقال :

- لقد وصلنا إلى سفينة الكنز.

ودقَّ قلبُ آختو، وأخذ يقفِـزُ فرَحًا فوقَ ظَهْـرِ ضاحِكٍ، فقد سمعَ كثيرًا عن الكنوزِ، ولكنه لمْ يرَ كَنْزًا في حيَاتِه.

وتنحنحَ ضاحِك، وقال :

- هناكَ مُشْكِلَةٌ صغيرة.

فهَبَطَ قلْبُ شُعلة :

- ما هي ؟

- حارسُ الكنز.

- وهل على الكنزِ حارِس؟

- إنـه أخطبــوطٌ ضخمٌ عجـوزٌ سكَنَ سفينـةَ الكنــزِ منـذُ غَرِقَتْ، وهو يعتقدُ أن رسالتـه في الحياةِ هي حراسَتُها. ولا أحدَ يدرِي لماذا ؟

فسألت شعلة مُشْفِقَةً :

- وماذا سنفعل ؟

- اتركَا الأمر لي. لقد فكرتُ طوالَ الطريق في خطَّة.

واقتربَ آختو الذي كانَ يُنْصِتُ باهتمامٍ، فأضاف ضاحك:

- سأهاجِمُه داخَلَ المركب.

وحين لم تَتَحَمَّسْ شعلـةُ وابنُها للفكـرةِ، توقفَ عن قهقهتِـه في الحالِ، واقتربَ منهما بأنفه سائلا:

- ألَمْ تعجبكما خطَّتي؟

فتكلمت شعلةُ بأدبٍ زائد:

- أرجُو ألاَّ تغضَبَ مما سأقوله يا سيد ضاحِك.

فقهقَهَ ضاحكٌ، وقال:

- لو كنتُ أغضبُ لما سمَّوْني ضاحكا.

فعلَّقت شعلة:

- تعجِبُني روحك الـريـاضيـةُ، لـذلك سأصـارِحُكَ بأن خطتك هذه لن تنجح.

فسأل ضاحك:

- ولكن لماذا؟

- لأنك ستقاتِلُ الأخطبـوطَ الحارسَ في ميدانِـه . وصدِّقْني ، إنكَ لن تستطيعَ التغلُّبَ عليه .

ففكَّرِ ضاحكٌ مَلِيًّا ، وقال :

- وماذا سنفعل ؟

فقالت شعلة :

- يجبُ أولاً أن نُخْـرِجَـه من هنــاكَ وذلك يتطلَّبُ الحيلـةَ ، وليسَ القوة .

واستغرقَ الاثنانِ في التفكير.

ولم ينتبهَـا إلاَّ حين أَخَذَ آختـو يصرخُ ويُعَكِّرُ الماءَ بـدُخانِـه ، فقالـت له أمه معاتبة :

- ماذا تريدُ؟ ألاَ ترى أنَّنا نفكر؟

- أريد أن تستمعا إِليَّ!

فقالت شعلة على مضض :

- ماذا تريد أن تقول؟ لا تُضِّيع وقْتَنَا . قُلْ بسرعة !

- أريـدُ أن أقـولَ إنني أعـرفُ حيلةً لاسْتِـدْراجِ الأخطبـوطِ الحارِسِ من قلبِ سفينةِ الكنز.

وشبكت أمُّه أذْرُعَهَا الثمانيةَ بصبرٍ نافدٍ وقالت:

- وما هذه الحيلة؟

- سمعْتُ من أبناءِ هـذه المِنطقةِ أن الأُخطبـوطَ الحارسَ فقد إحـدى أيـديـهِ في معـركـةٍ مـع خَنْكَلِيس، ولم تبقَ لـه إلاَّ سَبْعُ أذْرُعٍ. وقـد أطلقَ عليـه أهلُ المنطقةِ لقبَ (أبي سبعـة). وهـو يكرهُ هـذا اللقب جدا؛ لأنـه يذكِّـره بنقصِه. وكلُّ من نـاداه به يطارِدُهُ ويقاتِله.

ففتَح الدلفينُ ضاحك فمه إعجابًا لفكرة آختو، وقال:

- جاءنا الحل!

ونقَلتْ شعلة بصرها بينهما غيرَ فاهِمَة، فشَرَحَ آختو:

- إذا نـاديناه بأبي سبعـةٍ خرجَ من السفينـةِ ليطارِدنَـا وتركهَـا دونَ حراسة!

فلمعتْ عينا شُعلة، وضمَّتْ ابنهَا إلَيْها قائلةً:

- أنت ولد ذكي!

ثم تردَّدتْ قليلا وقالت:

- ولكن لا ينبغي أن ننادِيَهُ نحنُ. فقد يهاجِمُنَا.

فتقدم ضاحك، وقال:

- اتركا الأمر لي.

وتقدم الثلاثةُ قليلا، فظهرتْ لهم سفينةُ الكنزِ غارقةً إلى نصفِهَا في الطين، وقد نبتَتْ حولهَا غابةٌ من الطحالِبِ وأحجارِ المَرْجانِ حتى كادت تُغَطِّيهَا.

وفتح آختو فَمَه مبهورًا بمنظر السفينةِ القديمةِ الغارِقَةِ. لم يكن يعتقدُ أن ما حكَتْهُ المرينةُ العجوزُ (خناثة) حدثا واقِعيا. وها هو الآن يقفُ أمامَ مَشْهدٍ لم يكنْ يظنُّه موجودًا إلا في الخيال.

وتقدم الدلفين ضاحكٌ من بابِ السفينةِ المُظلمِ، وصاح:

- يا أبا سبعة! يا ناقصَ واحدة!

وأخذ يضحكُ ويقهقهُ ويتمرَّغُ فوقَ الطحالبِ مُستفِزًّا الأخطبوطَ العملاق.

ولم تَمْضِ لحظةٌ حتَّى خرجَتْ من فوهَـةِ السفينةِ زوْبعَةُ دُخانٍ أسـود غطَّتِ السفينـةَ وما حـولَهَا ! وخـرجَ الأخطبـوطُ الضخمُ غـاضبًا يبحثُ عن منـاديه بـذلك اللقبِ الكريـهِ، وكأنهُ مـاردٌ خرجَ من قُمْقُم!

وفوجئ بـه ضاحك وهـو فوقه كمظلـةٍ كبيرةٍ من العَضَلاتِ الفـولاذيةِ المفتـولـةِ !وقبلَ أن يُطْبِقَ عليـه برَمْشَـة عينٍ، انفلتَ ضاحكٌ من تحتِه بسرعةِ السهمِ، وابتعدَ يقَهقِهُ ويصيح :

- خرجتُ! خرجت من فتحةِ الذرَاعِ الثامنة !

وزادَ حنقُ الأخطبـوطِ الحارِس، فـدفَعَ الأرضَ بكُلِّ قُـواهُ وجميعِ أذْرُعِـهِ، وانطلق خلفَـه. وانتظـرَه ضـاحكٌ حتى اقتربَ منـه، فأطلَقَ في وجهِـه قهقهـةً أخرى، وصَفَـعَ وجهَهُ بـذَيلِـه وابتعد.

واغتنمتْ شعلة فـرصةَ خُلُـوِّ السفينةِ، فأمسكتْ بيَـدِ آختو ودخلتْ مسرعةً، وهي توصِيه :

- لا تضيِّعَ الـوقتَ في اللعبِ بما قـد تعثُـرُ عليـه من لُعَبٍ. ابْحَثْ عن صَوْلَجَانِ الحكمـةِ، العصا السحـريةِ التي حَكَتْ لنا عنها المرينةُ العجُوزُ، فتلك أنْسَبُ هديةٍ لصديقتك وردة.

وتسلَّـلاَ إلى داخلِ السفينـةِ من إحْـدَى نوافِـذِهـا الجانبيـةِ .
وبداخلها كان دخانُ الأخطبوطِ الحارسِ ما يزالُ منتشرًا كظلامِ الليل .

ووقف الاثنـانِ ينتظـرانِ أن ينقشعَ . . وشيئًـا فشيئًـا بـدأتْ أشعَّـةُ الضـوء تخترقُ جـوَّ المكـانِ ، فتكشِفُ عن منظـر يَحْبِسُ الأنفاس .

كـان بطنُ السفينةِ عِبَـارةً عن فـراشٍ من الجوَاهِرِ النفيسـةِ ، تتلألأ بجميع ألوانِ قوسِ قُزَح ! وعلى جـوانِبِها كانت رفوفٌ من خشبٍ مُتآكلٍ تكشِفُ عن سبائِكَ من الذهبِ الخالص !

ووقف آختـو ينظـرُ مبهـورًا إلى هـذه الألـوانِ الجميلـةِ حتى جذبتْه أمُّه من يَدِه هامسة :

- تعالَ نبحثْ . قد يرجعُ الحارسُ في أية لحظة .

وأخذت هي جهـةَ اليمينِ ، وأخذ هو ناحيـة اليسارِ ، وأخذا يزْحفَـانِ بأرجُلِها السِّتَّ عشرةَ ، ويبحثانِ تحتَ أكـوامِ الجواهِرِ وداخلَ الرفوفِ .

وكـان آختـو، لِصِغَـرِ حجمِـه، يـدخل جميعَ الثقـوبِ مهما كانت صغيرة.

وحين خرجَ من إحدى الحُفَرِ يائسًا جاءت إليه أمُّه:

- هل وجدتَ شيئًا؟

- لا. . .

- يجبُ أن نفكِّر قبـلَ أن نبحثَ. إذا كان صـولجانُ الحكمةِ ثمينـًا جدا، فـلا يمكنُ أن يضَعه صـاحبُه في أي مكـانٍ يسهُلُ العثورُ عليه.

- حقا يا أمي. إذا كان مُهِماًّ فلا بد أن يُخبِّئَه في مكانٍ أمين.

- علينـا إذن أن نبحثَ عـن غـرفـةِ الـرُّبَّـان. فهي ذلك المكان.

وتوجهـا نحوَ بابٍ سميكٍ مُقوى بصفـائح الحديد. وبحثَ آختو عن ثُقْبٍ يدخلُ منه فلمْ يَجِدْ إلاَّ ثقبَ المفتاح. ودخَل منه إلى غـرفـةِ الـربَّانِ، فـوجَـدَ النـورَ يـدخُل إليهـا من ثقبٍ كبيرٍ بـالسطـحِ. فهبَطَ قلبـه خـوفًـا من أن يكـونَ أحـدٌ قـد سرقَ الصوْلجان.

وجال آختو بعينيـهِ فرأى صندوقًا كبيرًا مفتـوحًا فتأكد من أن الصوبلجانَ كان بداخِلِه وأنّه سُرِقَ.

وهمَّ بـالعودَةِ إلى أمِّـه التي كـانت قلقـةً تناديـه ليخـرجَ من هناكَ، ولكنـهُ لاحظَ دكَّة السريرِ الـذي كان ينامُ عليهِ الـرُّبّانُ. فذهبَ إلى أمِّه وهمسَ لها من خلْفِ الباب:

- انتظريني قليلا.

وأسرعَ نحـوَ الـدكّـةِ، فبحثَ في جـوانِبهـا عن ثقبٍ حتى وجدَه، ودخلَ إليها.

وانتظرَ قليـلا حتى أَلِفَتْ عينـاه الظلامَ، وأخذَ يبحـثُ يمْنَةً ويسرةً فإذا بصندوقٍ مستطيـلٍ عليهِ قُفْلٌ صدئٌ هَـشٌّ، فدخل بين القُفل والصّنـدوقِ ودفعَ بكلِ قُـواه، فـانْفَصَلَ القفلُ عن الصندوقِ. وأدخلَ إحدى أيْـديهِ فبحثَ داخلَ الصندوقِ فإذا عصًا مستطيلةٌ تـرقُدُ بداخِلِه. فأمسكَ بهَا بقـوةٍ، وفتحَ الغطاء ببقيةِ أذرُعِهِ، وخرجَ بها وعقْلُهُ يكَادُ يطيرُ فَرحا.

ولم يطلْ فرحه كثيرا.

ولم يكدْ ينـادي أمَّه ليخبِرَهـا حتى سمعَ صرخاتٍ مـرعبةً من داخل السفينَـةِ. وأطلَّ مِنْ ثُقْبِ البـابِ، وقلبُـهُ يُـدقُّ بعنفٍ، فـرأى الأخطبوط الحارسَ يُطَـوِّقُ عنقَ ضـاحكٍ بإحدى أذرعِـهِ الفُـولاَذية، ويمسكُ بـأُمِّهِ شُعلـةَ بذارعٍ أخـرى، ويضربُ بهما الأرضَ، وهي تستغيثُ.

كان ضاحكٌ يفتحُ فَمَه فتخرجُ منه فقاقيعُ الهواءِ المخزونِ في رئَتيهِ فيُحِسُّ بالاختناق.

وكانت شعلةُ تُطِلقُ ما تبقَّى في حوْصَلَتِهَا من دُخانٍ في وجهِ الأخطبوطِ دونَ جدوى.

وهنـا لم يبقَ أمـامَ آختـو إلاّ حلٌّ واحِـد. ذلك هـو استعمالُ العصا السحريةِ... فوجَّهَهَا نحوَ الأخطبوطِ الكبير، وقال:

- يـا صولجانَ الحكمـةِ، حـوِّلْ هـذا الأخطبوطَ الشريـرَ إلى سردينة بإذن الله!

ولم يُصَدِّقْ آختـو عينيهِ، وهو ينظرُ من ثُقبِ المفتـاحِ، إلى ما حـدَثَ لـلأخطبوطِ الجَّبـارِ، فقـد انْكَمَشَ بسرعـةٍ كبيرةٍ حتى صَار كُتْلَةً صغيرةً تحوَّلَتْ في الحال إلى سردينة.

أمـا ضاحكٌ فظنَّ أنـه أفْلَتَ من قبْضَةِ الأخطبـوطِ بمَحْضِ قُوَّتـهِ، فَصَعَدَ بسرعـةٍ إلى السطحِ، وفتح خيـاشِيمَه في الهواءِ، وأخذ يتنفسُ بقوةٍ، سعيدا بنجاتِه.

وكان عَجَبُ شعلةَ شديـدًا حين أفاقَتْ من غَشْيَتِهَا فلمْ تجدْ مِظَلَّةَ الأخطبوطِ الهائِلِ فوقها.

وخـــرج آختـو من الثُّقْبِ الكبيرِ، وجـــاء يحمِلُ بين أيـديـــهِ صولجانَهُ الثقيلَ، ووضعَه أمامَ أمه...

وفتحت شعلة فمها في دهشة، وسألت:

- هل... هل وجدتها؟

فحرك آختو رأسَه بالإيجابِ، وقال:

- نعم!

- حقيقـة؟ هـذه هي العصا السحـريـةُ التي تحدثتْ عنهـا خُناثةُ، المرينةُ العجوز؟

- نعم، هي بذاتِها وصفاتِها!

- وكيف عَرَفت؟

- لقد جَرَّبْتُها.

- كيف؟

وهنا ظهر ضاحكٌ يقهقه وَيقتربُ حَذِرًا من أن يفاجِئَهُ الأخطبوطُ. فالتفت إليه آختو، وقال في مرح:

- الحمد لله على السلامة، يا ضاحك!

فردَّ ضاحك، وهو يراقبُ الأركانَ المظلمةَ بعينيه:

- سلَّمكَ الله يا آختو... ولكنْ يجبُ ألاَّ نَبْقَى هنا حتى يعودَ ذلك الغولُ الشّرسُ. لم أكد أصدِّقُ أنني نجوْتُ من قبضَتِهِ الحديدية!

- لا تخشَ شيئا الآن يا ضاحك!

فتدخلتْ شعلةُ مُحتجَّةً على استهانَةِ ابنها بالخطرِ، وقالت:

- لو كُنتَ وقعتَ في قبضتِهِ لما تكلمتَ هكذا... لنذْهبْ من هنا حالاً، وقبلَ أن يعودَ الحارسُ القاتل.

فضحك آختو قائلا:

- قلت لك لا تخافي يا أمي، فقد زال الخطر!

وفي هذه اللحظةِ مرَّتْ السردينةُ التي كانتْ أخطبوطًا عملاقا أمامَ ضاحكٍ، فابْتَلَعَهَا دونَ جَهْد.

وسألت الأم:

- ولكنْ أينَ ذهبَ الأخطبوط؟

- ابتلعَه ضاحكٌ منذ لحظة!

فغضبتِ الأم، وصاحتْ بولدِها:

- ألا تَكُفَّ عن مِزَاحِك حتى ونحنُ في قلبِ الخطر؟

- أنا لا أمزحُ يا أمي. ألم تسأليني كيفَ جرَّبْتُ العَصَا السحرية؟

- نعم.

- لقد جرَّبتها على الأخطبوط، أمسكتُ بها، ووجهتُها نحوَه، وقلت: «يا صولجانَ الحِكمة، حوِّلْ ذلكَ الأخطبوطَ الشريرَ إلى سردينة بإذن الله»، وفعلاً تحوَّل إلى سردينةٍ في رمْشَةِ عيْن!

وفتح ضاحكٌ فمه خائفا:

– وقــد بلعتُـه أنـا ! بلعتُـه دفعــةً واحــدة. . . كُلُّ ذلك الأخطبوطِ الذي كـان يملأ جـوفَ هذه السفينـة في بطني أنا ؟ يا إلهي ! وماذا لو تحوَّلَ إلى حالتِه الأولى ؟ سَيَنفجرُ بطني !

فهوَّن عليه آختو قائلا :

– لا تخفْ يـا ضاحكْ ! مـا دام معنـا صولجانُ الحِكمـة فلن يحدثَ لك شيءٌ من ذلك بإذن الله . وعـانقَ الصولجَانَ بأذرعـهِ الثمانيةِ ، وقال لأمّه ولضاحك :

– والآن ، وقد أتمَمْنـا مُهِمَّتَنَا ، علينا أن نعودَ إلى بـلادنا . . . فقـد طـالَ غيـابُنـا . ولا أدري مـاذا حــدَثَ لصـديقتي وردةَ المسكينة .

وتطـوَّعَ ضاحكٌ مـرةً أخـرى ، فأخـذَ الصولجانَ بين فكَّيْـه ، وأركَبَ شعلةَ وإبْنهَـا ، وانطلقَ يشقُّ الأعْماق متوجِّهًا شرقًـا نحوَ بلادِ الشواطئ .

14

أمَّـا وردةُ، فقد نـامت في المدينةِ بعـدَ أن ضربتْهَا أمُّهـا نومًـا مُضطـربًـا . . . باتتْ تحلُـمُ بشعكُوكٍ وهـو يحاولُ طعْنَ آختـو بالمِشَكِّ، وهي تُعرِّضُ له يدَها فيطعنُها في كفِّها .

وفي الصباح أفاقت ترتعشُ من بـردِ الحُمَّى التي أصابَتْهَا من التِهابِ جُرْحِ كفِّهَا وتَعفُّنِه .

وحين وجـدتها أمُّهـا كـذلك غضبتْ مـرةً أخـرى ؛ لأنها لنْ تستطيعَ الـذهـابَ للعملِ لتـأتي بـالطعـامِ والـدواءِ لـزوجِهَـا المريض .

وبعـد أنْ لَطَمَتْ وجهَهَـــا ، وصـاحت فيهـا مُـــؤنِّبـةً لها على اختلاطِهـا بأولادِ السوقِ ، كَشَعكـوكٍ وأمثالِـه ، قامتْ فطَبَخَتْ لها ولأبِيها شُرْبَةً ، وخرجتْ تبحثُ عن عجوز الحَارةِ المُعَالِجَةَ .

وبعد سـاعةٍ عادتْ بها ، فصنعتْ هذه عـددًا من «اللَّبائِخِ» والخَلاَئِطِ وضَعَتْهَا وسَطَ كفِّ وردةَ وأقْفلَتْهَا ولفَّتْهَـا بِضِمَادةٍ باليةٍ وسِخَة .

وباتت وردَةُ تعـاني الألم في يدِهَا تلك الليلـة . وفي الصباحِ أخذتها أمُّهَا إلى فَقِيهِ الحَارَةِ ، فكتبَ لهِا تَميمَةً ، وغسَلَ جُرحَها الذي انتفخَ وانْفَتَحَ بماءٍ وسِخٍ أذَابَ فيـه رَمَادَ إحـدى تمَائِمِه ، فَلَمْ يَزْدَدْ إلاَّ انتفاخًـا وتعفُّنًا ، فنصحها والدُهـا أن تأخذها إلى الطبيبِ . وبكت الأم لسماعِ كلمةِ الطبيبِ ، وصاحت :

- من أينَ لي بفلوسِ الطبيب؟

- خذيها لطبيبِ الدولة ؛ إنه مجَّاني .

فزاد بكاؤها :

- يمكن أن تموتَ الطفلــةُ قبلَ أن أصلَ إليـه . المـمـرِّضُـونَ والممرضـات يأخذُونَ الرشْـوَةَ أكثرَ ممَّـا يطلبُه الطبيبُ الخاص . وهم يقفُون كالزَّبَانِيَة على بَابِه!

وبدا الألَمُ الحادُّ على وجهِ والدِ وردة ؛ فقـد كان يتمنَّى ، أكثَرَ من أيٍّ وقتٍ في حياتِـه ، أن يكونَ صحيحَ البدنِ ، ليأخـذَ ابنته إلى الطبيب .

وفي النهايـةِ لم تجد الأم بُدًّا من أخْـذِ ابنتِها إلى الطبيـبِ ؛ فقد كانت تتألَّمُ كثيرا، والانتفاخُ يزحفُ إلى ساعدِها وذراعِها .

وحين وصلَ دورُهـا ، بعـد وقـوفِ يـوم بكـامِلِـه على بـابِ الطبيبِ ، نظرَ هذا إلى اليدِ ، وحرَّك رأسَه في يأسٍ ، وقال للأم :

- تأخرتِ كثيرا في المجيءِ بهذه الطفلـةِ إلى الطبيب! أخْشَى أنه ليس هناك علاجٌ إلا قطعَ اليد . . .

وضربتِ الأمُّ صدرَها بيدها ، وصاحت :

- قطعَ يد بِنْتِي ؟!

فأضاف الطبيب :

- إذا لم تُقْطَعْ اليـدُ فسوفَ يسري الالتهـابُ إلى بقية الجَسَـدِ وتموتُ الطفلة . هذه هي الوسيلةُ الـوحيدةُ لإنقاذها . فكِّري في الموضوعِ ، ولا تُطِيلِي التفكيرَ، وعودِي اليومَ إذا أردتِ العمليَّة .

وقفتِ الأم تفكِّر بجدٍّ ، فخـافتْ وردةُ أن توافِقَ أمُّها على بَتْرِ يَدِها ، فانْفَلَتَتْ منها ، وخرجتْ هارِبَةً من المستشفَى . . .

وظلَّتْ تجري بـاكيـةً ، وهي تحمِـلُ يَـدَهـا المريضـةَ بيـدِهـا السليمَةِ ، حتى وصلتْ إلى الشاطئ .

وبينما هي تنتحبُ والألمُ والحزنُ يعْصِرَانِ قلبَهـا، إذ أحاطتْ بها عِـدَّةُ ظـلالٍ. ومسحتْ عينيهـا ووجهَهَا بكُمِّهـا، ونظـرت حواليْها، فـإذا شعكوكٌ وعصابتُه ينظرونَ إليهـا بتَشَفٍّ انتقَامِي بغيض.

ومدَّ شعكوكُ يده الخشنةَ فضغَطَ على يدِها المريضةِ قائلا:

- ماذا تُخَبِّئِينِ هناك؟

وحين صـاحت من الألم، ضحكتِ العصـابَـةُ، فقـال شعكوك:

- أرأيتِ جـزاءَ وقـوفِكِ في طـريقنـا ؟ أيـنَ هـو الآن ذلك الأخطبوطُ البائسُ ليُنْقِذَكِ من مُصيبَتكِ؟

ونطقَ أحدُهم قائلا:

- إذا انتفختِ اليـدُ بعـد الطعنَةِ بـالمِشَكِّ فـلا عـلاجَ لها إلاَّ القطْع. هكذا جَرَى «لِوَلَدِ عليّ».

ودفَعَهـا أحـدُهـم من الخلفِ فألقَـاهَـا على وجهِهَـا فـوقَ الرملِ، وانطلقت العصـابَةُ تَجُرُّ خلفَها قطّةً مربـوطةً بشريطٍ في اتجاهِ المقَابر. . .

ونهضتْ وردةُ، فنفضَتْ عن مـلابِسِها الرَّمْـلَ، وتوجّهَتْ نحـوَ الصخورِ التي كـان البحرُ قـد انْسَحَبَ عنها. وهنـاك جلستْ فــوقَ صخـــرةٍ خضراءَ تنظــرُ إلى الأفقِ في ذُهُــولٍ وصَمْت.

15

وأيقظهَـا من سُهُـومِها صـوتٌ غـريبٌ يشبـهُ «سْسْتْ» . . !
والتفتتْ حَـوَاليْها فلم تَـرَ أحـدًا ، وعادتْ إلى سُهُـومِها . فعـادَ الصوتُ الخافِتُ : «تْسْتْ» . . !

ونظـرتْ هـذه المرَّةَ إلى الماءِ أمامهَـا ، فإذا رأسُ آختـو الصغيرُ خارجَ الماءِ يُلَوِّحُ لها بيدينِ منْ أيدِيه .

ونَسِيَتْ وردةُ مَـرَضَهَـا تماما ، وقـامتْ من فـوقِ الصخـرةِ ، وانحنتْ عليه ترْبُتُ على رأسِه بأصَابعِ يدِها السليمة . . .

ونظرَ هو إلى يدها الأخرى ، وقال :

- ماذا حدثَ ليدك اليُمْنَى؟

- مَرِضَتْ من طعْنَةِ ذلك البغيضِ شَعْكُوك .

وأخـذتْ تبكي بحـرارةٍ حين تـذكَّرتْ مِحْنَتَهَـا . فقـال آختـو حزينا :

- لماذا تبكين، يا وردة ؟

- لأنَّ الطبيبَ قال لأمي لا بُـدَّ من قَطْعِهَا حتى لا يَسْتَشْرِيَ المرضُ في بقيَّةِ جسدي . . .

فبكَى آختو، هو الآخر، وقال :

- ليتني أستطيعُ إعطاءَكِ يـدًا من أيدي الثمانيـة! فقد كنتُ أنا السببَ في كلِّ ما حَدَثَ لك . . .

وهنا تكلَّمَتْ أُمُّه خارجةً من الماء :

- مسـاءَ الخيرِ يا وردة. أرجـو ألاَّ تخافي منِّي. أنا أمُّ آختـو، وقد كنتُ أودُّ أن أقـابِلَكِ لأشكُرَكِ على إنقاذِ حيـاتِه. ولكنّي لمْ أكنْ أتـوقَّعُ مُقَابَلَتَكِ في مثلِ هـذهِ الظروف. ولعلَّ اللّـهَ أرسَلَنَا إليكِ في الـوقتِ المنـاسبِ، كما أرسلَكِ إلى آختـو، في ذلك الوقتِ بالذَّاتِ، لتُنْقِذِي حيَاتَه . . .

ونظـرتْ إليها وردةُ غير فَـاهِمَةً، فغيرت شعلةُ الموضـوعَ دون شرْحٍ، وقالـت :

- جئناكِ بهديـةٍ اعترافًا بجميلِكِ . . . ولعلَّهَـا تُنْقِذُ حياتَكِ

كما أنقذْتِ أنتِ حياةَ آختو. . .

وأشارتْ إلى آختو، فرفَعَ العصا السحريةَ، وقال:

- جئنـاكِ بهذه العصا السحـريـةِ من سفينةِ الكنـز، بأعماقِ الغـورِ السحيق. وهي تُسمَّـى صَـوْلَجَانَ الحِكْمَـةِ؛ لأنَّها تُحقِّقُ لصاحِبهَا عددًا من الأمنيات. . .

فقالت شعلةُ لابنها:

- لماذا لا تُجرِّبُها عليها، يا آختو؟

فرفعهَا آختو، وقال:

- أرجو ألاَّ تكونَ قد فَرَغَتْ من الحِكْمَةِ.

ثم وجَّهَهَا إلى يد وردةَ المريضةِ، وقال بلَهْجَةِ الآمر:

- يا صوْلَجَان الحكمةِ، دَاوِ يَدَ وردة بإذن الله!

ووقف ينظرُ إليْهَا هو وأمُّه. . .

وأحسَّتْ وردةُ كأنَّ أحدًا يَضْغَطُ بيـدٍ ناعِمَةٍ على كَتِفهـا نَازِلاً على ذراعِهَا وسـاعدها حتَّى يـدِهَا، وكأنَّـه يَسُلُّ المَرَض منها. وأحسَّتْ بيدِها تُشْفَى، وبالانتفاخِ يَزُول.

فأسرَعَتْ إلى إزالـةِ الضِّمَادَاتِ عنْهَا، ونظـرتْ إلى يدهـا فإذا هي صحيحةٌ سليمةٌ كما كانت من قبل. . .

وفتحتْ فمهَا مندَهِشَةً، وصاحـت :

- مُعْجِزَة ! معجزة !

وهنا مـدَّتْ شعلةُ وآختو الصـولجانَ الذي صـارَ ثقيلاً حين أخرجَاه من الماء إلى وردةَ، وسَارعـتْ هي إلى أخذِه منهما شاكرةً تكادُ تطيرُ من السعادةِ بنجاتِها، وسلامةِ يدِها. . .

وضَمَّتِ الصولجانَ إلى صـدرِها، وخـاضَتِ في الماءِ إلى آختو وشعلـة اللذين كـانا ينظُـرَانِ إليهَا ودمـوعُ الفرحِ في عيـونِهِمَا. وانْحَنَتْ فقبَّلتْ رأسَ كلٍّ منهما بحبٍّ كبيرٍ، وهي تقول :

- لا أدري كيف أشكُـركُما، أجـدُ نفسي عـاجـزةً تمامـا عن الشكر. . .

فقالت شعلة :

- أنا التي لا أدري كيـف أشكُرُك على إنقاذِ ابني مـن موتٍ مُحقَّق. . . إذا احتجتِ إلى أيِّ شيءٍ مـن البحـرِ، فما عليك إلاَّ أن تَقْعُدِي على صخرتِكِ هذه، وتصفري.

ثم رفعَا أيديهِمَا مُوَدِّعَينِ، وغَطَسَا.

ووقفت وردةُ تنظـرُ إلى يدِهـا مرةً، وإلى الصـولجانِ أخرى، وتتساءلُ:

- هل هذه حقيقـة أو أنا في حُلْم؟ إنَّ مثلَ هـذه الأشياءِ لا تحْدُثُ إلاَّ في قِصَصِ الأطفالِ الخيـالية... فهلْ هي تحدُثُ لي حقيقة؟

والتفَتَتْ يمينًا ويسارًا لترى هل رآهـا أحدٌ تتسلَّمُ الصولجانَ من الأخطبـوطِ، أو سمِعَها أحدٌ تتحـدَّثُ إلى نفسِها، فلـمْ تر إلاَّ أحجامَ شعكوكٍ وعصابَتِهِ فوقَ صخرةٍ بعيدة.

16

كان شعكوكٌ يربطُ القطـةَ المسكينةَ إلى حَجَرٍ كبيرٍ، وعصابتُهُ تصيحُ صيحـاتِ الهنـودِ الحُمرِ، وتـدُقُّ على عُلَبِ القصـديـرِ، وترقُصُ حولَ القطةِ الأسيرة. . .

وعرفَتْ وردةُ مـا كانوا يـريدُون أن يفعلوا بـالقطةِ، فأسرَعَتْ نحوهُم تجري كالريشة.

وحين صَعِـدَتِ الصَّخْـرَةَ، ووقفتْ أمامهم تلْهَثُ فـوجِئُـوا بجرْأَتِهَا بعد ما أصابَهَا منهم من أذًى. . .

ووضعتْ هي يـدَهَـا على الصَّـوْلَجَانِ داخلَ صـدْرِيتِهـا، وصاحتْ فيهمْ:

– ماذا ستفعلونَ بتلك القطةِ المسكينة ؟

فمَضَى شعكوكٌ في عَملِهِ غيرَ عـابئٍ بسؤالها، وردَّ (بعكوكٌ) مُساعِدُه:

– إذا لم تذهبي فعلْنَا بكِ أنتِ أيضا ما سنفعلُهُ بها !

فقالت وردةُ مُتَحَدِّيَةً :

- إذا حاولتُمْ أن تقذِفوا بها إلى البحرِ فستندَمُونَ .

وهنا رفعَ شعكوكٌ الحَجَرَ الثقيلَ بينَ يديهِ ، واقْتَرَبَ من حِفافِ الصخرةِ ليُلْقِي بِهِ وبالقطَّةِ المشدودَةِ إليهِ في الماء .

وحينئذٍ أخرجتْ وردةُ صولجانَ الحِكْمَةِ من صدْريتِها ، وصوَّبَتْهُ نحوه :

- قِفْ !

وارْتَعَدَتِ العصَا السحريةُ في يَدِهَا ، وداخَلَها الخوفُ من أن يكونَ الصولجانُ لا يَعْمَلُ إلاَّ في أيدي الحَيَوان!

ورفعَ شعكوكٌ الحجَر مُتحدِّيًا ، وقفزَ بعكوكٌ من مكانِهِ ليختَطِفَ الصولجانَ من يدِها ، فصاحتْ وردةُ بالصولجانِ :

- يا صولجانَ الحِكْمَة ، حوِّلْ هؤلاءِ الأنذالَ إلى فيرَان بإذن الله .

ولمْ تُصدِّقْ عينيهَا وهي تَرَى جميعَ أفرادِ العصابَةِ يتحوَّلونَ إلى فيرانٍ عجفاءَ مُلْتَصِقَةٍ بالأرضِ .

ولم يَفْطنُوا هم إلى ما حدَثَ لهم إلاَّ بعدَ أن نظروا حواليهم ، فرأوْا القطةَ تنظرُ إليهم من فَوْق ، وكأنها نَمِرٌ عمْلاق . فأخذوا

يبحثُـون عن جُحُورٍ يختبئُـونَ فيهـا ، والقطةُ تحاولُ الفكَـاكَ من ربَاطِها لتَنْقَضَّ عليهم .

وأطلقتْ وردةُ سراحَ القِطة ، فانطلَقَتْ تُطَارِدُ عِصابةَ الفئرانِ حتى اختبأوا في شِقٍّ بالصخرة .

ووقفتْ هي فـوقهم تنظـر إليهم ، وتضحـكُ منهم ، وهم يستعطفونَها لِتُخَلِّصَهُمْ من مِحْنَتِهِمْ . وانْحَنَتْ عليهم ، وقالت :

- وداعًا ! سأترُكُكُم في أيدِ أمينة ! ثم ضَحِكَتْ وقالت :

بل بين مخالبَ أمينة . . قـريبا يمتلئ البحـرُ ويَصْعَدُ الماءُ من تحتِكم ، ويَقَعُ لكم مـا كنتم تَنْـوُونَ فِعْلَـهُ بـالحيـوانِ الأبْكَمِ البريء !

وذهبتْ وتـركتهم ناويـةً أن تعودَ لتخْليصِهمْ بعـدَ العودةِ إلى بيتها .

وفي البيت وجـدتْ أمَّهـا تبكي على صـدْرِ أبيهـا المريضِ بِمَرَارَةٍ وتقول :

- ضَاعَتْ بِنْتِي وردة ! ضاعَتْ وردتي العزيزة !

ودخلتْ وردةُ فـوضعَتْ يـدَهـا على ظهـرِ أُمهَـا، وانحنَتْ عليها:

- أمِّي، لا تبكي، يا أمِّي... ها أنا عُدْت!

فـرفعتْ أمُّها رأسَهـا، وضمَّتْها إلى صـدرِها، واستمـرَّتْ في النَّحِيب:

- بنتِي وردة... لا أريـدُ أن يقطعَ الطبيـبُ يَـدكِ... من سيتزوجُ فتاةً بلا يد؟ كيفَ ستشتغلينَ في بيتِكَ؟

فقالت وردةُ وهي تـربُتُ بيدِها التي كانت مـريضةً على خد أمهَا:

- شُفِيَتْ يدي، يا أمي... انظري إليها... لمْ تعُدْ مُصابَةً!

وحرَّكتِ الأم رأسها باكيةً وغيرَ مصدِّقةٍ، فدفعتها وردةُ عنها برِفْقٍ، وعَرَضَتْ عليها يدها:

- انظري... انظري إليها... إنها سليمة!

ونظـرتِ الأم بعـدَ أن مسحتْ دمعَهـا، فظَهرتِ الـدهشـةُ الشديدةُ على وجهِها، وفتحت فَمَها لتتكلَّمَ فلم تَقْدِرْ.

وشَرَحَتْ وردة:

- إنها معجزة، يـا أمي! ولا يمكنُ أن تَقَعَ إلاَّ في الخيال. . !
أنا كذلك لم أصدِّقْ عيني. . . ولكنَّها حقيقة!

وسمِعَتْ أباهـا يسأل، فـاقتربتْ منـه، ومدَّتْ لـه يـدَهـا فلَمَسَها بيديْهِ ليتأكَّدَ، وأخذ يُقبّلُها، ويُـخَضِّبُها بدموعِه. . .

وأقعـدتْها أمُّها في حِجْـرِها وأخـذتْ تسألُها، وهي تحْكِي لها عن كلِّ ما حَدَثَ. . .

وحين حـدَّثَتْهَا عن صـوْلجانِ الحِكْمَـةِ الذي يُحقِّقُ الأمَـاني، رأتْ في عينيهَا بريقًا غريبا. . .

فقـالت وردةُ مُسْتَـدرِكَـةً ـــ وهي تـدعـو الله أن يغفـرَ لَهَا كِذْبَتَهَا:

- ولكنْ لمْ تبْقَ بـه إلا أمنيـةٌ واحـدةٌ، كما قـال لي آختـو، الأخطبوطُ، وعليْنَا أن نفكِّرَ جيّـدًا قبلَ أن نتمنَّاهَا. فلْيُفَكِّرْ كلٌّ منا في أمنية، فإذا اتفقنا على واحدةٍ تمنيناها.

فرفعت الأمُّ وجهَها إلى السَّماء، وقالتْ:

- أُمْنِيَتِي أنـا أن أُصْبحَ شابَّـةً جميلـةً وغنية. . . تصـوَّرَا، إذا أصبحتُ كذلك، فسوف أُسْعِدُكُما جدا. . .

والْتَفَتَتْ وردةُ إلى أبيها وقالت:

- وما هي أمنيتكَ يا أبي؟

فهمَسَ بصُعُوبةٍ:

- جاء في الأثـر: «إذا سألْتُمُ الله فاسْألُـوهُ العافِيـة». ويقولُ المثل: «الصِّحَّــةُ تــاجٌ على رءوسِ الأصحَّــاءِ، لا يَــرَاهُ إلا المَرْضَى». لذلك فأنا أتمنى على الله الشِّفَاءَ والصّحَّةَ...

والتفَتَتِ الأم لزوجها، وقالت:

- الصحَّةُ وحدَها لا تكفي! سنبقَى كما كُنَّا فُقرَاء...

وقال هو:

- وأنتِ إذا أصبحتِ شـابـةً جميلــةً وغنيـةً، فلن تستطيعي البقـاءَ معنـا في هـذا الكـوخِ الحقير، ومع رجلٍ مـريضٍ وكبيرِ السنِّ مثلي!

فالتفتتِ الأم لوردة وقالت:

- احْكُمِي أنت بيننـا، يـا عـزيـزتي... فأنتِ صـاحبـةُ الصولجانِ. ما هي أمنيتك؟

فرفعت وردةُ عينيها إلى السماءِ باسمةً، وقالت:

- أمنيتي أنــا ستُحقِّقُ لنا جميعًــا ما نتمنَّــاهُ. . . أنا أتمنَّى لنــا السعادة!

فحرَّكَ الأبُ رأسَه مُوافقا، وقالتِ الأم:

- كيفَ لم أفكّر في ذلك؟ يا لي من مُغفَّلة!

وأخرجتْ وردةُ الصولجانَ، ووضعتْهُ بينَهمْ وقالت:

- يــا صــولجانَ الحِكمة، حقــقْ لنا نحن الثــلاثــةَ السعــادَةَ والهنَاء بإذن الله. . .

وفي اللحظةِ نفسِهــا بدأ الأبُ المريضُ يشعُــر بدفْءٍ غــريبٍ يسري في عِظَامِــهِ الباردةِ، ولأولِ مــرَّةٍ رفعَ رأسَه عن الــوسادةِ، وجلسَ دون مُساعَدة.

وأحسَّتِ الأمُّ بــراحــةٍ وطمأنِينَــةٍ تمْلأُ صــدرَهــا، وبمشَــاعِــرِ الانقباضِ والحسْرَةِ والقلقِ تُزايلهَا.

ووقفَ الأبُ لأولِ مــرَّةٍ، فــزَغْــردَتِ الأم، وأمسكتْ بيــدهِ فأخرجتْــهُ من الكوخِ إلى الســاحةِ المقــابلةِ للبحــرِ، وهو يبتسمُ ويقول:

- الحمد لله تعالى، قريبًا سأعودُ إلى عَمَلي يا عزيزتي، وننسى الفقرَ والبُؤْس!

17

وتذكـرتْ وردةُ شعكوكـا وعصابتَـه، فخرجتْ مُسرِعـةً نحْوَ الصخرة.

كـان البحرُ يمـدُّ، والموجُ يَـرُشُّ الفئرانَ الخمسـة من أسفل، مُهَـدِّدًا بإغراقهَـا. . . وكانت القطَّـةُ تحرُسُ الشِّقَّ، وتُدخِلُ فيـه مخالِبَها الحادَّةَ بين الفَيْنَةِ والفَيْنَةِ، لعلَّهـا تختطفُ واحدًا منها. . . وكلما ارتطمتْ موجةٌ بالصخـرَةِ ارتَّاعَ الفئرانُ، وصعِدُوا قليلاً إلى أعلى، واقتربوا من القطَّةِ القاعدَةِ لهم بالمرصَاد!

وأطلَّتْ وردةُ عليهم، وقالت:

- هل تُبْتُمْ إلى الله من جرائمِكُمْ؟

فجاءَتْهَا أصواتُهم الآدمية:

- نعم! نعم! نُقْسِمُ لكِ ألاَّ نعودَ أبدًا!

- أقْسِمُوا كذلكَ أن تُنظِّفُوا أبدانكُمْ وملابسكم.

- نُقْسِم، نُقْسِم!

- وأن تعودُوا إلى المدرسةِ ولا تغادِرُوها حتى تُتِمُّوا دراسَتَكُمْ!

- نقسم، نقسم!

- وإذا حَنَثْتُمْ في قَسَمِكُمْ فأنتم تعرفونَ ما ينتظُركمْ.

ثم أخرجتِ الصولجانَ، وأبعدتِ القطةَ عن الشقِّ، وأمرتْهُمْ بالخروجِ. وحينَ خرجوا وجَّهَتْهُ نحوهُم وقالت:

- يا صولجَانَ الحِكْمة، أرجِعْهُمْ إلى شَكْلِهِم الآدمي بإذن الله!

وفي رمشةِ عينٍ تحوّلوا إلى أولادٍ كما كانوا... وحين رأتهم القطةُ أطْلَقَتْ سيقانها للريح حتى اختفتْ في المقبرة...

وطلب شعكوكٌ من وردة أن تُصْبِحَ رئيسةَ العصَابَة، فقبِلتْ قائلةً:

- من الآن فصَاعِدا سيكونُ شعارُ عِصابَتِنا «الجدُّ في الدرَاسَةِ، ومساعَدَةُ المرْضَى والفقراءِ، والرِفْقُ بالحيَوَان».

وهَتَفَ أفرادُ العصابَةِ باسمها:

«عاشت وردة. عاشت وردة».

18

وعادت وردةُ إلى دارِهَا وقد نَزَلَ الظلامُ. ولم تجدْ أبَاها هناك، فسألت أمَّها عنه فقالـت لها: «إنهُ ذهبَ إلى جامعِ الحيِّ لصلاةِ العِشَاءِ مع الجماعَة».

وفي تلكَ اللحظـةِ دخل الحاجُّ مومِنٌ بـاسمًا مُشْرِقَ الوَجْـهِ، فسألته زوجتُه حَفْصَةُ:

- هل لقيتَ في المسجدِ أحدًا من أصدقائِك القُدَمَاء؟

- لقيتُهم جميعـا. وكلّهم عـرضُـوا عليَّ أن يبحثُـوا لِي عن عملٍ معهم.

- الحمدُ لله!

وتعَشَّى الثـلاثـةُ، ووضعتْ وردةُ رأسهـا على رُكْبَةِ أبيهـا وهـو يحكي لها قِصصًا من السيرةِ النبوية، حتَّى غرِقَتْ في نومٍ عميق.

وحينَ حملَتْها أمُّها لتضعَهَا في فراشها كانت تحْتَضِنُ صوْلَجَانَ الحكمةِ بقُوةٍ إلى صَدْرِهَا.

ونام الجميعُ تلكَ الليلةَ في هدوءٍ وطُمأْنِينَة.

وقُبيْلَ أذانِ الفجرِ استيقَظَتْ وردةُ على صوتِ همسٍ خفيفٍ، ففتحتْ عينيها، فإذا بها وجهًا لوجهٍ مع آختو، الأخطبوطِ.

كانت عيناهُ تلمعانِ في أشعَّةِ النجومِ، وهو يَطْلُبُ منها ألاَّ ترفعَ صوتَها، ويهمسُ في أذنها:

- جئتُ إليكِ مُخاطرا بحياتِي عبْرَ اليابسةِ؛ لأنَّ صديقَنَا ضاحكًا الدلفين في خطرٍ كبيرٍ!

فجلستْ وردةُ في فراشِهَا منْزعِجَةً، وقالت:

- يا إلهي!

ثم وضعت يدَها علي فَمِها، وحمَلَتْ آختو في كفِّها، وخرجتْ به، وهي تسْأله:

- ماذا حدثَ له؟

- وقع في شِبَاكِ المَضْرَبَة(*). وقريبًا سيقتلونه رمْيًا بالرَّصَاصِ؛ لأنه يُهيِّجُ التُّونَ، وبقيةَ الأسماكِ الأخرى بوجودِهِ بينها..!

(*) المضربة: مصيدة ضخمة من الشباك المدلاة من مراكب الصيد لاصطياد التون.

- وماذا سنفعلُ لإنقاذِهِ ؟

- إذا أعطيتِنِي صولجانَ الحِكمة فسأذهبُ أنا وأمِّي الآن لإنقاذه وإخراجِه من الشَبكَة.

فأخرجتْ وردةُ الصولجانَ من صدْريَّتها، وأسْرعتْ بآختو نحوَ الشاطئ قائلة:

- لم تَعُدْ بي حاجةٌ إلى الصولجان... فقد تحقَّقَتْ جميعْ أمنياتنا!

ووضعت آختو داخلَ الماءِ، وناولَتْهُ الصَّولجانَ، وكانت أمُّه شُعلة في انتظارِهِ، فذهبا مُسرعينِ إلى حيثُ يوجدُ ضَاحك.

19

وعادت هي إلى الـدَّار سعيدةً بصداقتِها مع هـذه الحيواناتِ الطيبةِ الوفِيَّةِ. واستلْقتْ فوقَ سَرِيرها، ونامت. . .

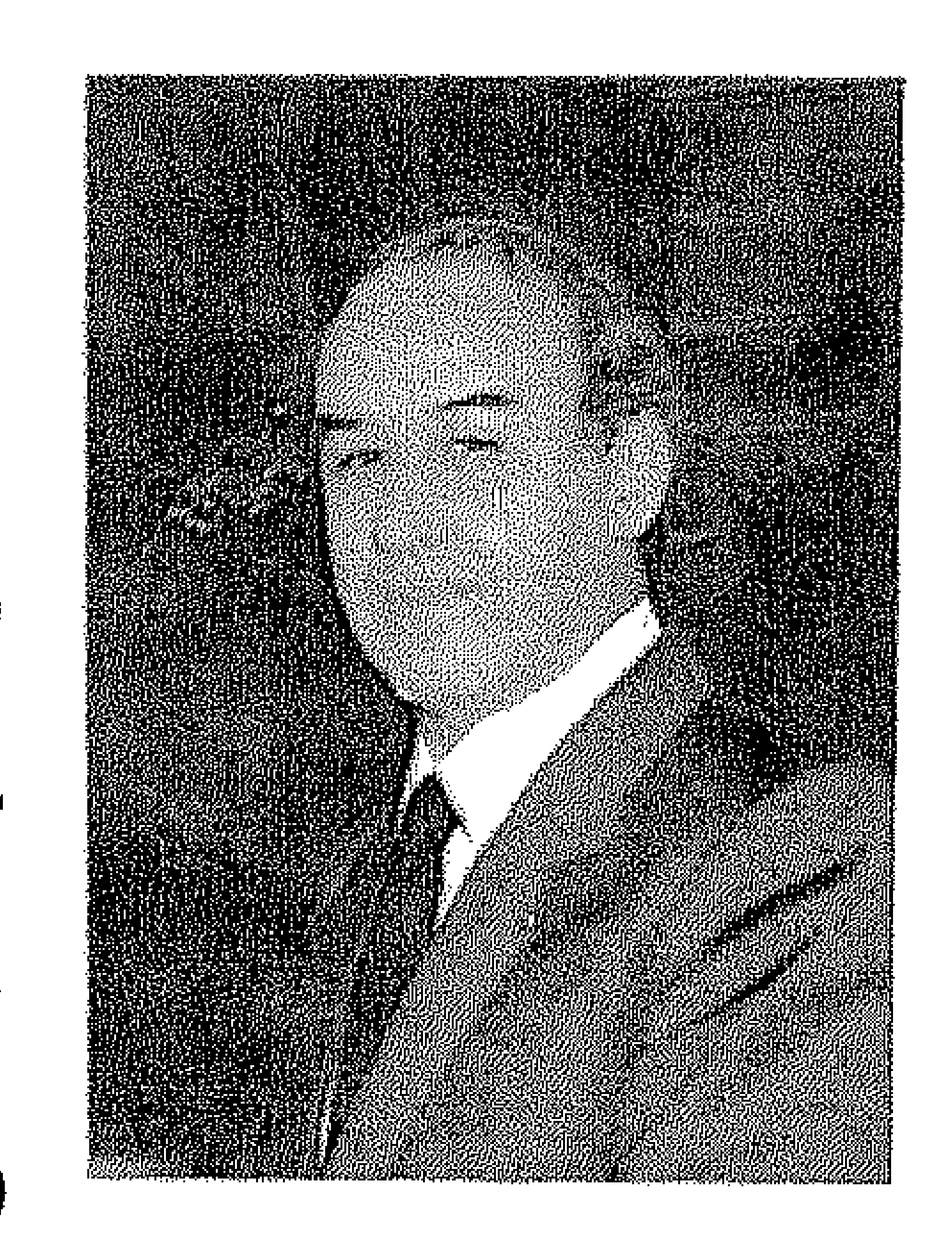
وفي الصباحِ حين أيقظتْها أمُّها سألَتْها :

- أينَ صولجانُ الحكمة ؟

- أعَدْتُهُ إلى صـديقي آختو ليُنْقِذَ به صديقنَا ضـاحكا الذي وقعَ في شَبَكَـةِ المضْرَبَـةِ. لماذا تسألينَ عنـه، يـا أمِّي؟ هل بكِ حاجةٌ إليه؟ فابتسمت الأمُّ وضمّت صغيرتَها إليها، وقالت :

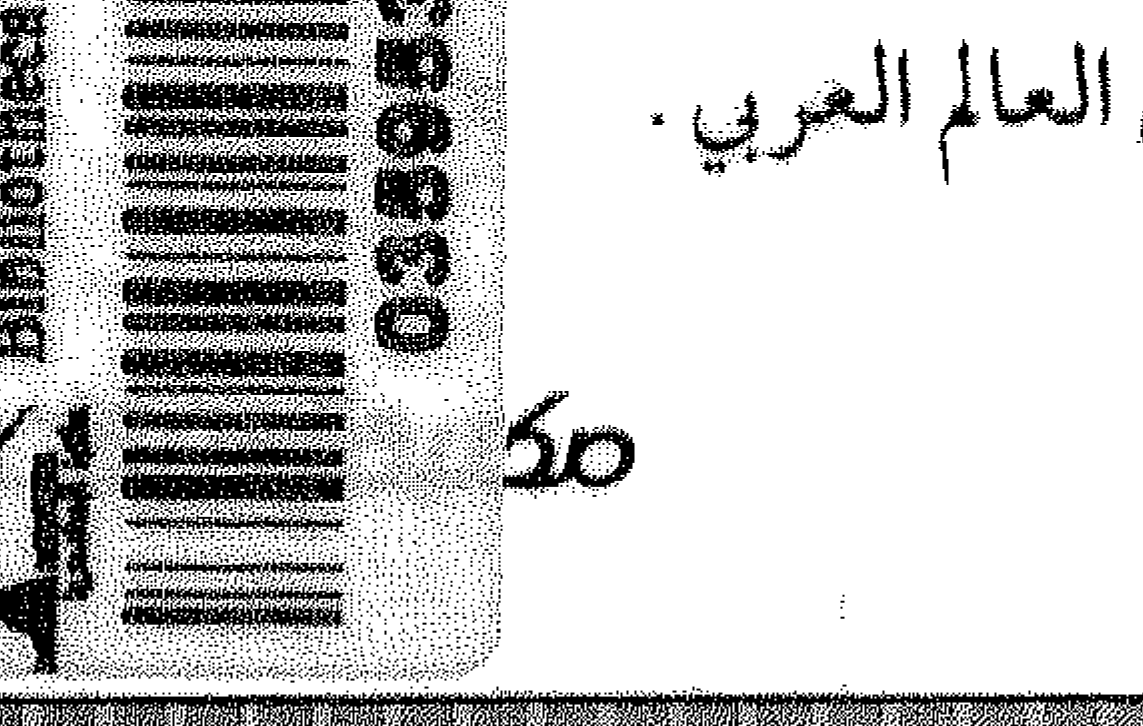
- لا يا عزيزتي، لم تعد بي حاجةٌ إليه.

هذه السلسلة



تضم هـذه السلسلة مجموعـة مختـارة من القصص والـروايـات التربـويـة التشـويقيـة المختـارة للكـاتب المغـربي المعـروف أحمد عبد السلام البقالي، الحاصل على جـائزة «المنظمـة العربيـة للتربيـة والثقافة والعلوم».

وهي موجهة للشباب بأسلوب الأستاذ البقالي السلس، وخيالـه الخصب، وخطوته السريعـة التي تنقل القارئ من مفـاجأة إلى أخـرى، ومن عـالم إلى آخـر، يقـرب للقـارئ أحـداث الماضي البعيـد، ويلقي الأضـ...
المستقبل، بـالبراعـة نفسهـا التي يتنـاول ...
غرابـة؛ فالبقالي من أبـرع كتاب القصـة البو...
العلمية الحديثة للشباب في العالم العربي.



مكـ

